

هذا العدد المجلد السادس
 والعشرين من مجلة
 ليختم قصص. وهو لا يقل
 أهمية عن العدد رقم مائة (100)
 الذي وقع التنويه به والاحتفاء
 بالوصول اليه، فكلاهما يشمل
 مرحلة من مسيرة هذه المجلة
 ابتداء من شهر سبتمبر
 1966. ولعل المقارنة المجردة
 للأعداد والمجلدات توصل إلى

تقرير

فراغ ونقص في الأعداد والمجلدات. والحديث عن هذا
 النقص يذكرنا بكبير محنة تعرضت لها مجلة قصص عندما
 عاملها المدير الثاني للدار التونسية للنشر معاملة
 لكتب في الصدور لا معاملة النشر يات المحدودة الأجل
 حتى اعترتها فترة تعطيل امتدت سنة وثلاثة أرباع
 السنة وبنقص سبعة أعداد مما كان منظوراً حصوله. وإذا
 كان المثل القديم يقول : «رب ضارة نافعة» فإن ذلك
 التعطيل - وهو مضرة لا محالة - قابله التحدي وصدق
 العزم من أعضاء نادي القصة فعزموا على مواصلة صدور
 المجلة رغم صعوبة النشر وملابسات الترويج والتوزيع.
 وقد جاء في العدد رقم 31 (الذي يمكن أن يطلق عليه عدد
 التحدي) ما يلي «.. إما توقف المجلة عن الصدور
 باعتباره أولى من صدور متعثر غير منتظم، وإما
 محاولة إنقاذها من ذلك نظراً للدور الكبير الذي قامت
 به طيلة سنوات في ميدان الخلق والانتاج الأدبي. وكان

يمز على النادي أن تتوقف مجلته. ولهذا أقدم على تجربة الاعتماد على الذات والقيام بمغامرة يأمل منها أن يحقق الهدف وتواصل الرسالة. ولقد وجد نادي القصة من النادي الأم (النادي الثقافي أبو القاسم الشابي) ما شجعه على خوض التجربة رغم ما يحيط بها من صعوبات.

ونجحت التجربة فعلا. ولولاها لما صدر العدد رقم مائة، ولما كان ذلك الاحتفال وتلك الحفاوة بهذا الرقم الذي أخذ طيب الصدى وعناية الاعلام المسموع والمرئي. خاصة أن الاعتماد على الذات لم يقتصر على مجلة قصص فقط بل امتد إلى رافد آخر من نشاط نادي القصة وهو إصدار سلسلة مجموعات قصصية بعنوان «منشورات قصص» الذي ما يزال في مرحلته الأولى لكننا نعتقد أنه مشروع واعد، ومراهنه جديدة من نادي القصة رغم الصعوبات التي يلقاها النشر في هذه الربوع. وكم كان لصدوق العزيمة من الآيات والعلامات المضئية. وعلى هدي من ذلك سعيينا... ونستمر.

http://Archivebeta.Sakhril.com قصص

ضربت

زوجتي كفا بكف والطرقات
على باب البيت تتوالى بعنف
وقالت متبرمة :

- ما أظن إلا أن صاحب البيت
قد جاء فهذا موعد زيارته.

قلت، وأنا أتوقف عن دفع
قطعة الخبز داخل فمي :

- وماذا يريد صاحب البيت

اعترافات مكتومة

هذا ؟ الكراء سندفعه حين نقبض الاجرة.

وردت زوجتي :

- أنت تقول هذا. ولصاحب البيت رأي آخر ربما.. فقم إليه
فهذه الأشياء من اختصاص الرجال.

صاحب البيت الذي نشغله رجل عجوز ليس له إلا المال
صاحب وأهل. لم يرتبط بامرأة ولا جمعه بيت بقریب، يملك خربا
أشبه بجحور الفئران يؤجرها للمنهوكين أمثالي. ويظهر أن له
غرضاً آخر غير جمع المال احتار الجميع في الكشف عنه فهو
عدواني مغرم بالمشاكسات. ومن أجل ذلك يجرننا الى الخصام ورفع
الشكاوي. حتى انه يمهلنا عند اليسرة في أول الشهر. بل يتغيب
عمدا حتى يتحقق أننا دخلنا ساعة العسرة ليشدد الطلب. ندفع له
الكراء في الابان فيعد النقود ثم يعيدها قائلاً :

- لعلك في حاجة الى هذا المبلغ. أبقيه عندك فانا لا أبقى
النقود لدي. انما اضعها في البنك، ولكن لا وقت لدي الان لذلك.
سوف أعود في وقت مناسب فاحتفظ بها بل بإمكانك التصرف

فيها فما عندك أعتبره حصل في حسابي. وهكذا يورطنا حتى تتجمع مقادير لا نقدر على تسديدها عندها يكشر عن أنيابه ويقف جباراً قائلاً :

- ادفع حالا أو غادر البيت ! هل يستولي الناس على أملاك الغير بغير حق ؟ ثم يصم أذنيه. انحط كل الأعداء، أقم كل الحجج على حسن ذيتك، أقسم باغلظ الأيمان إنك ستسد المبلغ في أقرب وقت بعض الساعات فقط.

فهو يضع كلتا يديه يسد بهما أذنيه حتى لا تنفذ توسلاتك اليهما.

بعدها يشرع في القاء محاضراته :

- غدا صباحاً أجرك الى المحكمة. لآلقي بك مساء خارج أسوار بيتي. أنتم كالبق لا يدري الانسان كيف تتسربون الى بيوت الناس دون اذن من أهلها. ولكني أنا الوحيد الذي أستنبط الدواء لاستئصال الحشرات!.. تف على ساعة جعلتني أنهار لأضع مفاتيح أملاكي في أيد أئيمة سوف أراكم غدا وأنتم تتكدسون في الشارع تحرسون أشياءكم وتتملقون المارة تستجدون عطفهم. بل ولماذا تتكبدون مشقة تهراستها ؟ فمن تسول له نفسه أن يمد يدا لأشياء تافهة كتلك التي تتشدقون بامتلاكها وإنها لتحوي خبث العدوى بما تحويه من جراثيم تعشش فيها ولسوف أحث البلدية على التخلص من خبثها بإحراقها.

قال ذلك وانصرف. أنا أعرف أنه سيعكر المشهد مع غيري فتلك هوايته.

ولآني ظهره ومشى وثيذا يتأبط محفظته التي يتشبث بها، وكأنها قطعة من ثيابه. فهو يظن أنه يقوم بدور القاضي والمحامي وعون التنفيذ. ويقال : إنه يحفظ قانون الاكرية عن ظهر قلب. ويعرف عنه أنه يشغل كامل وقته - بعد وقت صراعه مع المتسوغين طبعاً - في قاعات المحاكم يحضر كل الجلسات يستمع لكل المرافعات. ينتظر صدور كل الأحكام يحتفظ بحيثياتها.

عدت إلى مجلسي قرب مائدة الطعام وفي نفسي ما لا أعرف،

وقد هربت مني شهية الأكل وكنت قبلها في أشد الجوع حتى أنني حدثت نفسي أن أدخل في سباق مع أطفالي فأسطو على حصصهم حتى لو بقوا جوعا. ولكن الحظ أسعفهم بهذا الأفاق الذي أخذ معه شهيتي وأقام حاجزا بيني وبين الطعام.

وقد كنت قبلها لا أبه لما يصدر عنه. ذلك أنني أستجير منه بالمال الذي كنت أدخره. لكن هذه المرة كنت أشكو خواء، وقد حضر الدائن وغاب المال. كنت أنظر تارة الى وجه زوجتي المتجهم، وأخرى الى أطفالي، وهم يلتهمون الطعام في تحرش، وما ذنبهم ألا يفعلوا ذلك؟ فهذه الامور لم تخالط رؤوسهم بعد. وإني لأتخيل الغد وهم يتكدسون على الطوار والناس يلتفون من حولهم يرثون الحال. إذ ليس أقسى من أن تنكشف وتحوطك العيون حتى لو كانت غير شامطة. قلت في نفسي : ليتني قتلته. بعدها أذهب مباشرة إلى السجن دون أن يقودني شرطي. فأدخل مركز الشرطة طليق اليدين وليس يجمعهما قيد. عندها سأجد مستقر الامد حتى لو كان بعيدا. ويبقى أطفالي وقد أمثوا رعب التهديد...

لا، هذا حل فظ. وحسنا أن لم تخطر ببالي فكرة الاغتيال هذه. لسوف أضربه إن عاد، أضربه بهراوته حتى أنسيه الوقوف على باب بيتي. أقف له القول، أسفزه أولا. أهده، أرفعه بيدي عاليا حتى يشعر أنه لو هوى ما استقام أبدا. أخضه مرات فاقربه إلى الغثيان. قالت نفسي : تهور. وهل حل العنف قضية قط؟ وحدها الصخور تعالج بالعنف. فلو حدث وفاضت روحه وأنت تهزه تعصر بشدة. ألم نعد لمأساة القيد والسجن ؟ الا تعرف أنه شيخ، وأنه حتى العطاس قد يؤدي به الى القبر.

كانت الساعة تشير الى الثانية والنصف وكان لا بد أن أعود الى العمل فانا موظف صغير في شركة مقاولات حصلت على عمل هناك بعد أن حفظت جغرافية المدينة وعناوين كل شركة فيها وحتى لو كان المرتب ضئيلا فالنزر القليل أفضل بكثير من لا شيء، ثم اني اطمأننت للاستقرار، وقد كنت لا اتبين موقعي، وكانت المسافة بعيدة نسبيا وحتى لا أرهق مرتبي الضئيل باجرة التنقل على الحافلة اتخذت لي دراجة أتصارع معها أوقات المطر والرياح. وأصالحها إذا سمحت ظروف الطقس.

كنت أدوس برجلي معفس الدراجة وعلى أزيها سرحت
بافكاري الى المستقبل. سوف أعتد الحرمان فأوفر كل فلس
ولعلي أجد عملا إضافيا يمكنني من جمع مبلغ أحوله إلى حجارة
ومواد للبناء. ثم يسهل لي جمعه حتى لو تعاونت عليه مع الزوجة
والاطفال فيكون لي مقرا لا يزعجني فيه شبح ذلك الشيخ
العجوز. عند هذا الحد أحسست أن رجلي تدوران في الفضاء. ولم
يعد ما يدفع الدراجة فالسلسلة قد انفصمت. فأننا أدفع الدراجة
والعرق يتصبب من كل جسمي وقلت أحاورها : لقد اخترت
الوقت الذي لا يسمح فيه بالتأخير لو كنت فعلتها عند العودة
لقدردت على معالجتك، ولكن لا بأس فلقد تحملتني كثيرا، وها إني
أرد الجميل. لم يحصل أن تأخرت عن العمل فقد كنت أول من
يحضر، وآخر من يغادر. ولكن ما حيلتي وهذا عطب فوق إرادتي.

قال رئيسي وهو ينظر الى الساعة تارة وإلى وجهي أخرى.

- ها لقد أظهرت المواظبة حتى ظننت أنني اطمانت لك.

هكذا تبدوون. ولكن النهاية أمرها أنا. تبدوون كقطع
العجين في يدينا ثم تتيبسون.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وكنت أريد أن أعتذر. ولكنه لم يترك في وقتا أنبس فيه
بكلمة واصل، وهو ينظر الى الدراجة حيث أشير :

- سوف أمتحك سيارة خاصة وسائقا ماهرا.

عد بعد أسبوع سنرى إن كنت تستحق الصفح.

مال لهؤلاء القوم يصمون أذانهم ويتفنون في استعمال
أفواههم فتصدر الكلمات ظالمة وكأنهم خلقوا ليأمروا فقط. ولعل
ذلك راجع الى أنهم متسلطون فقدوا السلطة حيث يبحثون فهم
يمارسونها حيث لا توجد. رئيسي هذا والرجل العجوز لا بد أن
هناك فصائل من هذا النوع. فهل أصبحت السلطة هواية ينجذب
اليها كل من خانتة أحلامه.

خرجت أترنح وكأنني شمل. حتى الدراجة أهملت أمرها، بل
ربما تركتها هناك لأجعل منها ذريعة للعودة. ولكن رجلاي أصبحتا

عاجزتين عن حملي فتهالكت على أول مقعد في مكان عمومي،
جلست هناك إلى جانب شخص يطالع صحيفة فما إن أحس
بوجودي حتى حول بصره عن الصحيفة وصوبه نحوي سائلا :

- أراك تحاول التعرف على العناوين فهل يهيك امر العالم ؟
وهل أنت من أهل السياسة ؟ أنا لا أتصفح غير ما يجري في
المجتمع من خلال الصفحة القضائية. بعدها أتعرف على المسافرين
الى دار البقاء.

قلت :

- ومن أنا حتى أتطلع الى أخبار العالم، بل إنني أشك في
أنني من المنتسبين اليه.

- هذا تشاؤم مفرط !

- تشاؤم فقط، فحتى لو فقد الإنسان الأمل فقد تبقى في
نفسه الأمنيات وهي لا تنتهي إلا بانتهائها. من فضلك اقرأ طالعي
وما تقوله الأفلاك عني فأنا من مواليد...

وحول الرجل الصفحة، فإذا هو يقول : إذن فانت من مواليد
برج العقرب فهناك ما تقوله الأفلاك : تنقضي يومك سعيدا.
يصادفك شخص يحمل اليك خبرا يسعدك، تنتظرك في العمل
مفاجأة سارة.

قلت للرجل وأنا أضحك بهستيريا :

- كل ذلك وقع، فما أصدق هذا الغال.

ناولني الرجل الصحيفة قائلا :

- حاول أن تقتل الوقت بالتفرج على العالم

قلت :

- أنا لست مهتما بأمور العالم، وما يجري هناك لا يهمني،
فأنا لم أقدر حتى على الاهتمام بشؤوني.

- هل أصابك اليأس. سوف تموت إذن، قال الرجل وأردف :

- يتكون العالم منك ومني وأمثالنا.

- قلت لك : إنني لست في هذا العالم فلماذا تريد ان تحشرني هناك وما من أحد يرغبني على الاعتقاد بذلك.

- تعلق بالأمل يا رجل. مالك ركنت إلى الهزيمة، فأنا مثلاً أراهن على الخيول. أشتري في لعبة السباق أملاً في الكسب، أشغل كل وقتي ادرس كل حصان حياته من يوم ولد. ومن هي أمه وابن من هو وكـم قطع من مسافات وعدد المرات التي فاز فيها بالسبق. وكـم مرة أخفق، وأعرف عن حياة راكبه ما يجله هو نفسه. ووزن الراكب والمسافات والوقت الذي قطعها فيه. كل صباح أقطع وقتي في الاختيار ثم تأتي مرحلة الانتظار وبعد النتائج فإن كان الريح أوسع اللعبة وإن كانت الخسارة كسبنا الأمل في الغد اللاحق، أليس هذا عالمنا جميلاً هل تشارك في هذه اللعبة. لعبة اليوم مضمونة الربح ولكن المال يعوزني. فلو كان معك مال لجنيته ربحاً وأصبحنا أغنياء لأمد بعيد.

قلت :

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- أسف يا سيدي إذ ليس معي مال ثم إنني خلقت وليس في تركيبتي أطماع من أي نوع. أما الأمل فأنا لا أعرف أنه عانقني مرة، ثم إنني سيء الحظ.

قال الرجل ضاحكاً :

- أنت تغلظ نفسك، تلصق بها تهماً ليست في فالك.

قلت :

- أنا أعرف منك بنفسني.

وقال الرجل :

- أظنك كذلك. وإلا فما معنى أن أجرك الى الغنى فتتحاز الى حضيرة الفقر.. وأظنه يئس مني فقد فتح صحيفة من تلك

التي لا تعني بغير سباق الخيل وكأنه تركني وحيدا فقلت :
- هنيئا لك. فانت وحدك الذي فهم حقيقة هذا العالم.
فالركض وراء الخيل مفر بحق.

والتفت إلي وكأنه يؤنسني :

- ألا ترى أن ذلك أحسن بكثير من الركض وراء الناس.
وحتى أولئك الذين يركضون وراء الجرذان أو حتى الكلاب يجدون
متعة. فكل أمل يسلي.

كان لا بد لي أن أغادر فقد تفتنت إلى أنني أجلس إلى رجل
مجنون وجنونه من نوع حديث تعسر مداواته.

ولما مددت يدي أودعه قبض عليها بشدة حتى انتابني خوف
مفاجئ. ولكنه أطلقها وقال :

- مجنون ! وتعس ! فما صادفت أسوأ منك حظا. تفتح لك
الأفلاك طريق الخير فتسده بصخور اليأس.

كنت أسير ولا أتثبت فيما حولي فأصطدم بالمارة. وما
عرفت المكان فكان الرجل استل مني العقل. ولم أفق إلا على نداء :
اسمع يا أنت ! يا سيد ! يا رجل ! وما أهتممت، ولكن غريزة حب
الاطلاع جعلتني ألتفت إلى مصدر الصوت. وعلى الطول الآخر
كانت سيدة عجوز توجه إشارتها نحوي. قائلة : أنت يا سيد !
توجهت نحوها : ماذا تريد سيدتي ؟

- أنت يا بن الحلال. أعني أعانك الله أعني على حمل هذه
الحقيبة فلقد انتظرت طويلا وما مرت سيارة أجرة. وما تطوع أحد
لإعانتني. فانا انوء تحت ثقل الحقيبة، والعرق يتصبب والعجوز
تمشي الهويينا فهل أستحثها وليس لها من جهد غير الذي تبذل.
وزاد من بطئها أنها تتوقف أحيانا لتحادثني تارة عن نفسها وما
قامت به من أعمال خيرية، وأخرى تسلط سوط غضبها على هذا
المجتمع الذي فقد الرأفة وانقطع كل واحد إلى عزلته.

محاضرات يائسة سئمت تكرارها من عديد الأنواء.

وساورتني فكرة إلقاء الحقيبة والعجوز والنّجاة بنفسي. وفي كل مرة أقرر ذلك تغمرني كلمات الاطراء حتى جعلتني أحس أنني المحسن الوحيد في هذه المدينة.

ألحت وأقسمت أن أدخل معها البيت. فهي تريد أن تكافئني على الأقل بتقديم قهوة، وكل جهد بذلته في التخلص منها ضاع أمام إلحاحها. بل جرتني من ثيابي جرّاً حتى ساورتني افكار سيئة فمن يدري ما تدبره العجوز. لا أزعّم أنني وجدت وقتاً للتثبت في البيت وما يحوي، فقد غشيني سحب مظلم حجب عني الرويا، فقد وقف ثلاثة رجال دوني وما نويت. صاحب البيت بسحنته الغريبة، ورئيسي الذي كان صديقاً فأصبح في لحظة عدواً مخيفاً، وأخيراً الرجل الحصان. وأنا أترشف القهوة، وأتخاشى نظرات السيدة العجوز وقد ركزتها بتحدٍّ مما جعلني أزداد ريباً فهذا النوع من العجائز أُرهب الشيطان وقهر حيله.

فتحت العجوز باب الحديث :

أمتزوج أنت ؟

قلت :

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- ولي حفنة من الأطفال

- وماذا تشغل.

- طردت اليوم من العمل

- وأين تقطن

- قد يلقي بي قريباً في الشارع.

- نفّس عن نفسك وقصّ عليّ، فقد يخفّ حملك. ولربما وجدت لك طريقاً غير الذي سلكت.

قلت : كيت و كيت، وسردت لها ما مرّ بي وكأنني أتحدّث الى أمي فأبّتها شكواي وأسرد عمومي، ولست أدري كيف وجدت نفسي قريباً من هذه السيدة دون مبرر فأبوح لها بكل ما في

نفسي وأنا أحس بالانشراح. وكان كل ذلك كأن كابوساً مرّ بي في المنام. ولكن السيدة لم يبد على وجهها أي انقياض. وكنت أعتقد أن مناساتي سترهقها فتتسارع الدموع على وجنتيها، بل العكس هو الذي حصل، فقد طفح البشر على قسمات وجهها وكأنها تستمع إلى أغنية محببة إليها.

أخيراً ابتسمت بفرح وقالت :

- سوف أجعلك لا تندم عن الساعة التي جمعتك بي. ولسوف أعوضك مما فقدته في عمرك لمدة أطول من الأسبوع بكثير. فأنا امرأة قضت شطراً من عمرها في التردّي. سبحت في الظلمات دهرًا فلا تطلب مني إيضاحاً كي لا أخلط مرارة الماضي بحلاوة الحاضر يكفي أنني الآن أغرق في أنوار التوبة قلت :

- أنا لا أطلب منك إلا إعانتي إن كنت قادرة على ذلك، وأني أرى نور الحقيقة في عينيك ساطعاً مما شجّعني على الالتماس.

- لا عليك بعد الآن، ولكن أي رجل هذا الذي تسول له نفسه أن يلقي بأطفال على الطوار ؟

- قلت بعفوية :
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

لا أدري، ولا أعلم إلا أنه جعل من أراهبنا مهنة ولكن الناس يتهايمسون باسمه فيدعونه «بابن الناس» ضحكك العجوز وكأنها صعقت حتى ظننت أنني أسأت إليها ثم اغمضت عينيها وكأنها تراجع أفكارها مما جعلني اليوم نفسي واندم على البوح باسمه.

ولكنها قالت أخيراً وقد عاودها الحبور :

- الكلب صار أراهبياً. وما زالت آثار أقدام السفلة وشم على كل جسده.. وتوجّهت إلي بالكلام :

- لقد كان كلباً نلقي إليه بالفضلات. نسخره لأخس الأغراض فإذا كانت المقادير هي وحدها التي ألقت بي حيث تريد.. حسناً هذا يكفي فانت رجل طيب لا يمكن أن أرحمك برذائل الآخرين.

لكنني أحملك رسالة واني لزاثرتك لا محالة، قل له إذا وقف

ببابك، ان ابنة خاتم الذهب، تكفلت بدفع الايجار. وقل له اذا حاول ان لا يصدقك : انها تسأل عن رجلك اليسرى وهل مازالت تعانقك الاعاقة، وانها تتعهد بان ترسل اليك بعاهاث اخرى وقل له اخيرا : انها اقرا تني كتابك الذي كنت تخفي، اذهب الآن وسوف اراك وسط عائلتك فأكون بذلك مسرورة.

ولما هممت بضمها مودعا انزلت يدها في جيبتي ووضعت رزمة من الاوراق المالية فشعرت وقتها ان دموعي تساقطت على ثيابها، وأنا ابتعد سمعت كلماتها تلاحقني : لا تتحرج فلسوف اتابعك ولن تغفل من رعايتي.

كنت أمشي وكأنني تخلصت من حمل كان يثقل كاهلي. وأنا احس كأنني خرجت لتوي من زنزانة كنت بها حبيسا، وهضلت طوال المسافة التي تصل بي الى البيت اتحسس رزمة الاوراق المالية. وكم وددت ان اثبت من مبلغها لكني لم اتمكن بالانفراد الى نفسي. ولكني اكتفيت من التشبث بها بان جعلت يدي على جيبتي. وبقدر ما الحت زوجتي عن معرفة مصدرها فما قدرت على البوح. فمن يدري وسوء النية من خصائص الزوجات، ولكني راوغتها حتى اقتنعت بان مدلول الدراهم يقني عن مصدرها.

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

كنت في انتظار اللحظة التي اواجه فيها ابن الناس وقد اعطتني السيدة سلاحا وخولت لي استعماله في قتله وحين يطرق بابي اخرج اليه متشامخا فأحول نظري عنه احتقارا له وانثر في وجهه الدراهم، واسقطها الى الارض عمدا وعلى مرات كي اجعله ينحني راكعا لالتقاطها بينما اطلق لسانني بالشتائم فاختر اذع الكلمات وأردأ انواع النعوت. سوف افرغ عليه ما انحبس في صدري على طول سنين عمري، وسأكون وقحا جدا ولو للحظة من حياتي هاه يا ابن من... لقد عرفت قصتك وسوف اضيف اليها اسوء ما يسوءك وسانشرها في كل الحي وبين كل الناس لقد ملكت السلسلة التي اقيدك بها فلن تستطيع بعد اليوم حراكا. احشو فمك بماضيك ولن تستطيع بعد اليوم كلاما، أجردك من تعاليك. أعود بك الى الأمس. الأمس الذي حجبته ببريق المال. ولكن ابنة «خاتم الذهب» التي خلطت ماضيك بماضيتها قد قامت

بعملية الفرز خرجت هي الى النور وبقيت أنت في الظلام.

مدت لآخذ دراجتي وفي الطريق تخيلت ما قد يحصل ربما اعترضني رئيسي وينهرني ولعله يتعمد طردي ايضا وساورتني عند ذلك فكرة الالتجاء الى النقابة ولكن قال عقلي، تشكوه لامين النقابة وهو صديقه الحميم فلقد كان في الدرجة السفلى فاذا هو يرتقي به السلم فيضعه اعلاه، اذن فلا بد من التحمل والكتمان.

ولكن كل ما خمنت كان خطأ، فقد التقطني رئيسي وسألني مستنكرا :

- اين اختفيت يا رجل. أمن أجل كلمة غضب عابرة تعاقب نفسك، اما حفظت من طبيعتي حتى اليسير : اصحابك يتلقون كلماتي وحتى الفاحش منها بصبر مجيب لانهم يعلمون انني أقول فقط. ثم أنسى في لحظة ما صدر عني.

- قلت : حتى غضبك مجد. فقد هبات لي فرصة لقضاء بعض الشؤون التي تستغرق وقتا.

- هيا الى عملك قال السيد الرئيس، واردف : ارجوك أن تتفاضى مستقبلا عن كلماتي الغاضبة، أتركني أتكلم وكأنك غير معني بالأمر ألم تفضض يوما عن تصرفات ابنائك ولكنك لن تصل بهم الى حد القطيعة هكذا نحن.

وأنا أعود من العمل وأمام البيت كان ابن الناس يقف وكأنه جندي يحرس البيت خفق قلبي وغلت مراحل الحقد في داخلي وتهيأت لأقول ما كنت اعدته. سوف ادخل البيت مباشرة واجلب النقود كي انفذ خطتي. ولكن الذي حدث أن الشيخ قابلني بابتسامة هادئة قرصني من وجنتي بلطف وربت على كتفي قائلا: - ان رائحة الطعام في بيتك شهية وقد اجتذبتني. افتقبلني ضيفا.

قلت :

- لثيم من يطرد ضيفا.

نظرت الي زوجتي باستغراب، فما رأيت في عيني ما يدعو للشك.

قال الشيخ وهو يبتلع اول لقمة، عذرك أنك تجهل...

قلت : لا يابن...

قلها، قلها، قل يا ابن الناس. فلم يعد يهمني ما يقول الناس انهم يقولونها خفية فليجهروا بها.

- اتعرف اني قابلت «بنت خاتم الذهب» وانها حملتني رسالة.

توقف الشيخ عن الأكل وصدرت عنه تنهيدة. ثم قال يخطبني :

- كلنا اقترفنا ذنوبا ولكن الله وحده الجدير بتقييمها، أنا رجل منبت وربما لقيط وليس لي الا المال أهل. افترديني أن أتخلّى عنه. واني لطالب حق فما من أحد يلومني.

وعيبني انني كثير الحرص. لجوج في الطلب، ولكن الأمر ليس بيدي فأنا أنتقم لنفسي وقد تلقيت من الإهانة ما لا تقدر الجمال على حمله، وإني لأجد لذة في الاستئلاء على الناس واخضاعهم. وتلك عملية تخديوية. هل سمعت عن مدمني المخدرات، أما المال فأنا اعرفه. انني لست قادر على الاستفادة منه بقدر ما يحفظ حياتي. وقلت لنفسي لمن أتركه ؟ ومن المستفيد ؟ إنه سيبقى حيث تركته لقد كان الشيطان يكتب لي على الأوراق المالية أشياء سيئة ولم يتقدم لي ملك رحيم ليحول نظري عن هذه الصحائف الشيطانية. اتعلم انني أحس بالدفع العائلي ولأول مرة في حياتي فلو ضمعتني الى أهلك لوهبت لك كل ما أملك. ارجوك فأنا لا أطلب الا أن أموت وحولي من يضع في فمي آخر قطرة ماء.

وبكت زوجتي وانخرط الشيخ في البكاء وبللت دموعه شعر لحيته الأبيض. ولم اشعر الا وأنا اعانقه ودموعي تختلط بدموعه وكلماته ترن في أذني : لقد كنت قبل الآن غريبا ظلمت طول حياتي غريبا. فهل يجد الغريب بينكم مكانا ؟

التابعي الأخضر

شارع من شوارع مدينة
أهلة بالبشر ولا بشر،
كانت تمشي طفلة صغيرة
لا أهل لها.

في

كانت تبحث عن فكرة أضاعتها
على الأرصفة ولم تجدها، كانت لا
تنفك تسأل المارة عنها، فيكشرون،
فاذا شفاههم متحدرة على صدورهم،
فتزحف أنيابهم الكلابية الى الخارج

البحث عن الأفكار الضائعة

عارية الا من اسلاك لحم دام، نسيت فرشاة الانياب تهريبه.

و ذات يوم وهي تبحث كعادتها عن فكرتها الضائعة في
شقوق الارصفة اهلى عتبات المغازات التجارية الكبرى اصطدمت
برجل طالت لحيته وتبعثر شعر رأسه وامتدت قامته فانقعر،
فاذا صدره في وضع الدافع لعربة خفيفة حرون، كلما انطلقت،
تعود لتصطدم به فاذا هو بين دفع وصد.

كان يعقد يديه وراء ظهره، لا يكلم أحدا ولا أحد يكلمه وكان
لانفتاح خياشيمه واختلاجها كالتوق للامتلاء بأرج قد يكون هو
الأخر ضيعه وما ينفك يتخلل الزحام يسأل الناس عنه.

فهولت خلفه الصبية وأمسكت بذيل سترته وسألت
سؤالها العادي : «سيدي !... يا سيدي هل عثرت مرة على فكرة
ضائعة في هذا الشارع ؟ إنها... إنها فكرتي. اشتراها لي أبي فيما
مضى ودفع حياته مقابلا لها.. بالله عليك يا سيدي هل وقعت
عليها ؟ أخجل يا سيدي لو عدت الى بقية اهلي بدونها. ولا أحد
كما ترى يدلني عليها».

توقف الرجل. لأول مرة توقف. والتفت الى الصبية ومرر بكفه على رأسها. قال : « لا فائدة من البحث أيتها المرأة الصغيرة، فالشوارع لا تعيد الودائع الى أصحابها. وكل الأمل أن تكون وديعتك قد وقعت في يد كريمة تحفظها... أما إذا أدركها قاطع من قطاع الشوارع ف... مع السلامة يا ابنتي.

ابتعد الرجل قليلا... ثم توقف وأضاف « المهم أن تكون الهمة عالية ! » وواصل طريقه.

بقيت الصبية ذاهلة، ثم شيئا فشيئا أخذت همتها تعلو، فانصب ظهرها، فاستقامت ثم قامت تقفو أثر الرجل الذي علمها في لحظة ما لم تتعلمه طيلة سني البحث في الغم والهم. شعر بها قريبة منه فاستغرب الأمر. أول مرة منذ زمن يحدث أن يحادثه انسان ويتعلق به. تريت الرجل قليلا وتركها تلحق به. وعندما قاربته سألتها : « ما الأمر أيتها الفتاة ؟ »

قالت : أريد أن أذهب حيث تذهب، قال : حيث أذهب ؟ ! ولكني لا أسكن المدينة أيتها الصغيرة. اني - كوحش البر - أسكن الجبل وحيدا. لا جار الا ما انبت الجبل. ولا أفق الا ما وهب البحر. قالت فانا ساكون معك ومع البحر والجبل إذن ! فهل لك في صحبتي ؟

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

لم يقل الرجل شيئا. وأحس بشعور غريب يمنعه من صرفها عنه. وهي تبحث في لحظة يتمها عن يد تمتد اليها. فمد لها يده وتسلقا الجبل.

كان بيته صغيرا كأعشاش الكواسر لا تكسر الا حدودها او الخوافق توقع الحياة بنبضها.

كان بيتا مفتوحا للصحو والأنوار، يشرف على الجهات. فسكنت اليه والى ساكنه وتعلما العيش معا.

كانا ذات صباح يطلان من البيت على المدينة. فبدا لها الناس في الشوارع المزدحمة بهم كالنمل يتلامس ليتباعد. لا أجسام لهم ولا قامات ترفعهم وكأنهم يمشون على رقابهم.

ضحكت الصبية وعانقت الرجل قالت : لا أريد مبارحة الجبل. فقد اعتدته وألفتك.

فقال : إن العيش في المرتفعات صعب. وساكن الجبل كالواقف على رجل واحدة، والرجل على الحبل والحبل في الفضاء، يجذب القاع من كل صوب.

قالت : مالنا والقاع ؟ ها نحن هنا. في الجبل لنا ما يغنيننا عن النزول.

قال : صعب أن نبقى على ظهر هذا المرتفع. وكل من يجرب الصعود إلينا ينزل بسرعة ولا يعود فهو كالعجلة المدفوعة بحتم شكلها والانجذاب.

إنهم -يا رفيقتي الصغيرة- إذ يصعدون إلينا فلينزلوا بنا. قالت : ما همنا فيما يفكرون. نحن حيث نحن وكفى حسبنا أن نكون هاهنا سعداء.

قال : من العسير أن تدوم سعادتنا وطعم الوحشة على لسانينا مرًا كالعلقم.

قالت : لا تياس فكما جئت، يجيئون. والمدينة تعج باليتامى الذين سرقوا المدينة منهم شيئًا. أليس المهم أن تكون الهمة عالية؟ أنسيت أنك أنت الذي علمتني ذلك؟

قالت ذلك وتوارعت بثقلها حول رقبته تقبله فيذعن بالقبول ولا يتزحزح عن انقعاسه المعتاد.

ثم أردفت : نسيت أن أخبرك !... لقد عثرت في بيتك والجبل على أفكار ناصعة وشفافة كالأماس.

قال : اجمعينها، وتخيري أحسنها وأجملها فهي لك لباس وأهل وموطن. وإذا ما نزلت إلى شوارع المدينة وحملتك الحاجة لقضاء شأن فشدي عليها، وأحكمي التصرف فيها. فهناك حتماً من إذا تراءت له سيسعد بها.

قالت : وأنت ؟ ألا تريد الاحتفاظ ببعضها.

قال : لا، لقد جمعت منها وصرفت ما كفاني العمر والمنى.

عروسية الخالوتي

البشير بن سلامة

قال

لمرافقه وهو يمشي بجانبه
في الطريق :

- أليس من الأحسن في
هذا اليوم الذي خلا من كل برنامج
أن نكتري سيارة ونذهب الى
الشاطئ كما دلنا عليه صديقنا
البارحة في منزله الفخم ؛ وقد
عرفني بالطريق حتى تجلى لي.
وجل ما في الأمر أن ساعتين أو
أقل تجمعا جمع الجماعة، بعد جولة

المقامة الجيمة
أو رحلة مع
الجمجمة الجواله

جميلة وهجمة على المصديق جليلة.

أجابه مرافقه بعد أن هم بأن يحجنه عن الفكرة :

- نعم ما جادت به القريحة ونحن في أحوج الحاجة الى
استجلاء جوانب جمّة من مجاهل هذا البلد.

وصمت مرافقه وهو يحدج صاحبه ويجمجم هذا الكلام في

صدره :

- هل في إمكان رجل سوق سيارة، وفي رأسه خليج، وفي
إحدى عينيه حول، وفي الأخرى حجل، وفي مشيته خليج، وفي رجله
شبه عرج، وفي يده اليمنى عوج، وبحركته تردد مع هوج، وفي
لسانه الذي لا يسكن تلجلج ولجج ؟

ثم أجابه جواب المستكين لعناد رجل في قلبه مع هذا كله كرم
وبنفسه للخدمة توهج، وللصلوات توشج، قائلا :

- افعل ما جادت به قريحتك الوهاجة ونفسك المواجة بأفانين

التَّجْوال الجرجارة.

ونظر الى جمجمته وما حدث عن حياته الطويلة من مولده باليونان، إلى استقراره برومانيا، إلى إقامته بباريس ثم تجواله في السفارات الأمريكية بأفريقيا وأوروبا وآسيا. وكانت حصيلة كل هذا خَرَجٌ من الشهادات الجمّة، ومن الصفات الجامعات المانحات. وعرف مرافقه أَنَّ الجمجمة منه تأججت حمرة خلاياها بالتَّوق الى الأسفار، وجوب الأقطار، والاحتكاك بالبشر والأخطار، وأنَّ شرارة الحمرة استشرت الى اللسان فتحوّل الى جواب أفكار، وبسقت أشجار كلماته كشجرة السيّكوية (*) البالغة من الطول أكثر من مائة من الأمتار والعريقة في القدم قدم قرطاج حنّبل أو أملكار. ومع هذا فإنَّ جمجمتنا قلَّ أن خرجت في الجملة والتفصيل عن سمج الكلام المخلوط بالتّمتمة والجمجمة والحممة والحجيف والجلط.

هو عصمان فرنجيّ صنو لعصمان الشّرق الذي رافق صاحبنا في بلد لا شرقيّ ولا غربيّ. وكان عصمان الشّرق أكثر أناقة وأضخم جثة تبدو عليه النّعمة وبقايا عظيمة زائلة. ولكنّه أفرغ البشر علما وأفشلهم فائدة وأكثرهم ادّعاء وعنادا. أمّا عصمان الفرنج فهو أوفر ذرية بالأموال والصلق بالخدائفة وإن كانت أقرب الى الزّيف منها الى الصّدق. وهو مع هذا أكثر قربا من عامّة النّاس وأخفّ حركة ناهيك أنّه يؤثّر «السّبادري» على الخداء الأنيق. وهو دائما متهيّئ للوثوب نحو أي مكان والاسراع هملجة وحرجلة وفي يده ورقة مرسوم عليها بالتفصيل الطّريق والنّهج والمهيع والفج.

ولو سألتني الى أيّ برج ينتسب لقلت لك إنّهُ برج قائم بنفسه إذ في لون بشرته حمرة فيها شحوب تجعله الى الشّبح أقرب وإلى الشّيء الهباء ألصق. ثمّ هو إذا رآك رفع يده اليمنى وانحنى الى الأمام داعيا الى السّير والرّحيل والجري والتّجوال. ولو سمح لك مصنّفو الأبراج لخصصته ببرج وحده هو برج

(*) شجر السيّكوية هو في غابة قريبة من سان فرنسيسكو ويبلغ طول الواحدة منها 112 مترا ويصل قطرها 6.9م أمّا عمرها فيناهِز 2200 سنة.

الجمجمة وما يمكن أن توصف به من المَرَج والهَوَج والعَرَج والحَوَج والحَرَج لأنَّه ولد وحرفه الجيم ووجهته جَوْجُ المركب وجعجة الموج هرجا ومرجا وجموحا. ومع هذا يلعب في جمجت بريق الهدوء والجنوح الى جلال زائف وهيبة ممروجة وهينة معجوجة.

وتفهم من كلِّ هذا أنَّ الدُّنيا لم تستوسق له، والحظُّ لم يؤاتِه، رغم اشارات يده الفاتحة في الفضاء مجالا، والاختذة بمجامع الكون، والرائية الى الافاق الواجمة. والأبعاد الرَّاجمة بالغيب رجما. ولو تتبعت نسق تحرك ما بجمجمته لعرفت أنَّه لو تعلقت لوالبها بموضوع الأَ وعلق علقا، يخرجك من عقلك خروجا، ويجعلك تدعو له بالخلاص والشفاء لأنَّه يطوف بالفكرة في متاهات ما أنزل الله بها من سلطان وكان طريقها أخصر وخطها أكثر استقامة وأقصر، ولكنَّه يتهالك على التَّشعيب والتَّشبيك والاغراق في التفصيل حتَّى أنَّه يخرج لك بآراء ومواضيع لا قبل لك بتصورها، ولا خطر ببالك أنَّ يشرأ على وجه هذه البسيطة يحتاج اليها في مثل هذه الحال حاجته هو اليها.

وجاء الصَّبَّاح وانبلج عن يوم شمس تطلُّ من وراء انسحاب، والفكرة تتضح في جمجمة صاحبتها. مر جزء من الصَّبَّاح وهو يحاور صاحب السَّيَّارة عن دقائق السَّيَّاقة وعمر السَّيَّارة وتأمينها. ثمَّ لما اطمأنَّ قلبه وانجلت عن صدره جحافل الشكِّ قادها ظافرا مظفرا أمام النزل وأشعر صاحبه بالهاتف أن جاء النُصر وأنَّم الله عليهما نعمته.

ونزل صاحبه من غرفته الى البهو وهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى فوجد مرافقه مهللاً مكبِّراً، كلَّ جزء من وجهه يرقص وحده، وكلَّ عضو في بدنه ينطق انتصارا وفوزا مبينا. وجلس في مكانه الى جانب السَّائق الكبير صاحب الجمجمة الرَّائدة. ولكنَّ محرك السَّيَّارة وجم وجمة ما بعدها وجمة، وحرن كما يحرن الجحش الجموح، وبرك كما تبرك الدَّجاجة استسلاما وانقيادا. واحتار صاحبنا حيرة كبيرة واستنجد بأعوان النَّزْل واحدا بعد واحد، وكلَّ وضع يده للبركة حتَّى جاء الخير على يد أسود محظوظ لم

يكلّف نفسه عناء كبيراً إذ فطن إلى أنّ الجمجمة الحرونة أذنت
اليد بأن تمسّ زراً قطع عن المحرك الكهربائي.

وسارت السيارة باذن الله ولكنها كانت تدبّ دبيباً وهي في
عزّ شبابها في طريق عريضة واسعة، وتميل تارة إلى اليمين
وطورا إلى اليسار فكانت تعرج عرجاً وتتعايل سكراً وتنشد من
الله فرجاً. ونظر إليه مرافقه فرأه يفتح عيناً ويغمض أخرى من
شدة الانتباه وحرصاً على السلامة.

ويا ليتّه اقتصر على الطريق المرسومة، والخطة المرقومة،
بل هو لا ينفكّ يرفع يده ليشير إلى مبنى قديم أو جزيرة كانت
سجناً. ومرافقه واضع يده على قلبه، وحابس أنفاسه منتظراً
كارثة تأتي من هذا السير الأعرج، أمام هذا السيل من السيارات
الصارخة طورا، الكابحة لفراملها أخرى في ضجيج مروّع، ومن
جراً أولئك السواق المتلفظين بأبشع السباب نحو سائقنا الجوّال
الحلزونى السير. هذا إذا لم يعبّ بفتة إلى طريق أخرى ويقف في
عزّ الطريق ليسأل المارة أو ليشير إلى سبابة بالوقوف في وقفة
بلهوانية مثيرة.

ودامت الجولة المارّة الممزوجة أكثر من ثلاث ساعات حتّى
وصلنا إلى الصديق وهو على أحرّ من الجمر، ومرافق صاحب
الجمجمة الجوّالة يحمّد الله على السلامة، ولكنّه يرقب العودة
وكيف تكون أطوارها، والرجعة كيف تتمّ حلقاتها.

واستمتع المرافق بحديث المضيف، وبخفة دمه، وعمق
تجربته، ولكنّ صاحب الجمجمة انتصب موسيقاراً جبّاراً واعتلى
كرسيّ البيانو وبدأ يعزف عزفاً أعرجاً ويمعن في العزف إلى أن
ضاقت أنفاس الحاضرين ولم ينجوا من الصخب الصاخب
والصوت المجلجل إلّا بأسراع صاحبة المنزل بالغداء.

وتغدّى القوم وجلس صاحب الجمجمة وعرضها إلى الشّمس
ومرافقه يقول له ناصحاً: ستؤثّر فيك تأثيراً بشعاً وهو يقول له:
لا عليك. إنّ هذه الخمرة تذهب كلّ بلاء وتمسح أتعاب الدّين
والدنيا. لو كرعت منها لتجدّد نشاطك كأحد ما يكون التّجدّد. ذقها

بالله عليك. ولم يتمّ كلامه حتّى قفز كأنّه ملدوغ. وهي حالة تدلّ على أنّ خاطرة راودت جمجمته، ولم تمض لحظة حتّى رجع وهو في زِي السّباحة.

ولا تسل عن المظهر الذي ظهر به فهو يدعو الى الابتسام على الأقلّ. ولكنّ مرافقه صاح به : ألا ترى أنّ البحر هائج وكما قال مضيقنا هي حرجف تهبّ لأذعة. فبربك حافظ على صحتك اذ لنا ثلاث ساعات سياقة أمامنا ولكنّه غاب بين التّلال وجرى وراءه المضيق قلقا، والتحق به وأقنعه بالعدول عن رغبته. فجال برهة جولة جاء إثرها بفكرة أخرى.

أنّه تذكّر صديقا قديما في هذه الرّبوع. كان يحبّه حبّا كبيرا. فقفز قفزة الى الهاتف وأداره بسرعة فوجده وبدأ يستطلع الطّريق ويرسم الخريطة. ثمّ لما وضع السماعة فتح نقاشا مع المضيق حول أقرب الطرق المؤدّية الى منزل الصّديق.

ولكنّ صاحبه وقريته في هذه الجولة أنكر عليه ذلك وذكره بهجوم اللّيل وخوفه من أهوال الطّريق ومخاطره. وفي نفسه يقول : خوفا من إغماض العينين وذهاب ما تبقى من صحوة الجمجمة بعد الكرم بالحقنتين، ولما كان الله ليهديه النّجدين.

وحمد الله صاحبه عندما أذعن لرأيه معذّبه. وخرجت السيّارة تدبّ دبيبّا حتّى وصلت المدينة، ولكنّه لم يقف أمام النّزل بل نصح خديته بأن يزور الميناء. والله أدري باللفز الذي يخفيه الميناء.. وبدأ الصعود والنزول. لأنّ المدينة مبنية كلّها على هضاب عالية. فتصعد السيّارة كأنّها تروم أن تطير ثمّ تنحدر فجأة لتقف أمام قافلة من السيّارات. وعند الانطلاق من جديد تهتزّ هزة يشرق معها البنزين شرقا حتّى جمحت مرّة وهي في صعود واضطرت الى السير القهقري. ذلك أنّ محركها أصبح جيّء هامدة. فحاول كيح جماعها بالفرامل ولكنّ قدمه ضغطت على الدّواسة خطأ فانحدرت كجلمود صخر جرفه السّيل من أعلى واصطدمت مؤخرتها بأوّل سيّارة قادمة

ونزل صاحب الجمجمة الجوّالة وهو يحرك يديه ويقول
لمرافقه قبل وصول ضحيّته صاحب السيّارة المصدومة، وقبل
الدخول في جولة أخرى الله وحده أعلم بأطوارها ونتائجها :

- والحال أنّ كلّ شيءٍ ضبط حسب نظام ليس كمثله نظام.
جديد وربّ السّموات كمثّل هذا العالم الجديد.

وابتسم مرافقه وقال :

- نعم مثّل هذا النّظام العالميّ الجديد.

البشير بن سلامة

من إصداراتنا القادمة

- بقية الكلام التابعي الأخضر
- الكتابة القصصية في تونس رضوان الكوني
- في ظلمة التّوارث <http://Archivebeta.Sakhrj.net> بنت البحر

قل

أن يعرف قارئ القصة أو
كتّابها الكثير، عن القصة
الصينية الحديثة إذ إن
النافذة الثقافية التي نفتحها عن
طريق اللغات الأجنبية للاطلاع على
الثقافات الأجنبية عادة ما تكون
موجهة إلى الآداب الأوروبية على
وجه الخصوص أو إلى الآداب
الانغلوساكسونية بشكل أعم. ذلك
أن اللغات التي نستعملها لهذا

نافذة على القصة
الصينية

الانفتاح الأوروبية بالأساس وحتى عندما وضعت قصة أمريكا
اللاتينية في متناول القارئ العربي فإن ذلك تمّ عن طريق لغات
أوروبية تنتقي لنا ما يمكن أن نفتح عليه أعيننا في مجال القصة
العالمية أكثر ممّا تقدّم لنا ما نحن ثقافياً في حاجة إليه. وهذه
الترجمة التي تقرب لنا الآداب الأخرى بعد مرورها بما يروج له
في البلدان الأوروبية أو في أمريكا قد لا تعني بالضرورة أن
الرافد الثقافي الذي نتعمّد منه بواسطتها يضع في متناولنا
إشكاليات نفس الهموم التي نحن في حاجة إلى الاطلاع عليها لدى
الأخر؛ فتلك الآثار الأدبية التي تمكننا منها الترجمة من اللغات
الأخرى، قد قدّمت باعتبارها تلبي حاجة لدى القارئ الأوروبي أي
إنّ ذلك الأدب الذي أختير للترجمة بلغة أوروبية يحمل مفاهيم
هي أقرب ما تكون إلى عقلية قارئ تلك الثقافة الأوروبية المعني
بمشاكلها وبمطلعاتها. أمّا قارئ العالم الثالث فقد يكون في حاجة
إلى غذاء فكري مخالف يكون ألصق بنظراته للحياة وللأدب. لذلك
فإنّ اطلاع القارئ التونسي على الأدب المترجم من ثقافات شعوب
تعاني من مشاكل اجتماعية قريبة من تلك التي يعرفها في بيئته،

قد يكون يلبي حاجة أقرب الى وجدانه وذهنيته. وبذلك يصبح للترجمة الأدبية دور ثقافي وظيفي.

وقد التزمت مجلة «قصص» بأن تكون نافذة القارئ العربي على القصة لدى الشعوب الأخرى وذلك من خلال ما تقدمه من قصة معربة يراعى في اختيارها التفتح والمعاصرة على أهم إشكالات الكتابة القصصية والمضامين التي تحرك دوافع الكتابة لدى المبدع وفي هذا السياق وإحساسا بمحدودية أطلاع القارئ العربي على القصة الصينية المعاصرة إذ إن حاجز اللغة طالما وقف في وجه مثل هذا التواصل فقد أرادت مجلة «قصص» أن تفتح نافذة على القصة الصينية الحديثة من خلال أحد كتّابها المعاصرين الذي يعكس في كتاباته هموما أقرب ما تكون الى طبيعة الفكر الشرقي الذي يجد في الأدب العربي أحد أهم روافده.

هذا الكاتب الصيني «جيا بينغوا» (Jia Pingwa) الذي نقدّمه في هذا العدد هو كما يصفه «كسباو زهونغ» (Xiao Zhong) المتابع لسيرته الأدبية، صort متميز في القصة الصينية الحديثة سواء على مستوى كثية الإبداع القصصي أو في تفرّده بمذهب «القصة الفكرة» التي تجد لها وجه الشبه في الأدب العربي القديم أو الحديث. فالقصة القصيرة تقوم عند هذا الكاتب على فكرة أساسية ذات بعد فكري يولي الأشياء البسيطة أهمية خاصة. والحدث القصصي في مثل هذه الكتابات يقوم بشكل أساسي على الأهمية التي تكتسبها مثل تلك الأشياء البسيطة في حياة الأفراد والمجموعات وكيف تنعكس على أفكارهم واختياراتهم في الحياة. ومثل هذا البعد الفكري كان دوما صفة مميزة للأدب الشرقية التي اقترنت بالحكمة وبالبحث في أهمية الموجودات. كما أن في الأدب العربي الحديث أصنافا من القصة تقوم على اللوحة الوصفية وشيئية الموجودات باعتبارها من مؤثرات التحول في مصير الأشخاص. ومثل هذا البحث الوجودي في صلة الكائنات ببعضها وانعكاسات مصير البعض منها على غيرها لا يخلو من بعد إنساني كم نحن في حاجة إلى الانحناء عليه اليوم بالتمحيص والتدقيق في وقت أصبح فيه مصير الكائنات مرتبطا بتصرفات الإنسان على هذه الكرة الأرضية.

في القصص الثلاث التي نقدمها في هذا العدد للكاتب الصيني «جيا بينغوا» (Jia Pingwa) تركيز على العناصر الطبيعية من حجارة وأشجار وضوء القمر وكلها عناصر على درجة كبيرة من الحضور في حياة الإنسان وواقعه. والكاتب يتناولها في أبسط مظاهرها وفي أقل وظيفية لها في توجيه مصير الإنسان ولكنه يتوصل الى أن يقنع القارئ أن ذلك الانطباع الأولي بعدم حاجتنا الى مثل تلك الأشياء البسيطة هو وهم لا يبرره إلا أنغلاق تفكيرنا على الجوانب الوجودية لحاجياتنا وكأنه في النهاية يريد أن يبصرنا بمدى حاجة الإنسان للتفكير في أبعاد وجوده الأخرى لكي يكتشف سطحية استفادته من هذا الكون ومحدودية فهمه للوجود.



نص : كسباو زهونغ
(Xiao Zhong)
تعريب : أحمد ممر

الكاتب جيا بينغوا (Jia Pingwa) عن طريق قصصه القصيرة. وقد تحصل على جائزة «الحصان الأحمر الطائر» بالولايات المتحدة الأمريكية سنة 1988 عن قصته «الطيش» وقد أمكنه أن ينشر الى حد الآن 53 مجموعة من قصصه. وقد لفت إليه هذا الشجاع الانظار مما جعل صحيفة «الصينيين في المهجر»

عرف

هذا الكاتب :
جيا بينغوا

(Jia Pingwa) (*)

الصادرة بالولايات المتحدة الأمريكية تطلق عليه لقب «الفارس المتفرد في مجال الأدب الصيني» كما أن الكتابة التيوانية «سان ماو» قد أثنت على كتاباته وذلك قبيل أنتحارها بيومين متأثرة في ذلك بتلك العواطف العميقة التي تنضح بها كتاباته وهي تعتبره كاتباً كبيراً. كما أن العديد من الصحفيين المعجبين بنوعية كتاباته وكميتها يعتبرونه عن اقتناع كاتباً موهوباً. أما هو فإنه غير مبال بكل هذا الإعجاب ويواصل بناء صرحه الأدبي بكل عزيمة.

فبعد أن اعترف به على نطاق واسع ككاتب قصة قصيرة نراه يتحول الى مجال إبداع النصوص النثرية ويتميز في هذا النطاق. إذ إن الإقبال على كتبه المعنونة «نصوص نثرية» شديد في المكتبات وغير مستبعد أن يحرز التفرد في هذا الصنف الأدبي.

من المتعارف عليه في الصين أن كتاب النشر يجدون الكثير من المشقة في فرض أسعائهم كما أن مؤلفاتهم قليلة الرواج. ومع

ذلك فإن مؤلفات بعض الكتاب قد بدأت في السنوات الأخيرة
تمزج بين الفلسفة والأفكار الشخصية وهذا الصنف الأدبي قد
أصبح يلقي قبولا متزايدا من لدن القراء.

وفي هذا السياق فإن «جيا بينفوا» يبرز من بين قلة قليلة
من الكتاب الصينيين المعاصرين الذين يزداد قراؤهم تحت تأثير
كتاباتهم الثرية وهو اليوم معروف عن طريق هذه الكتابات نظرا
لما يمتاز به من موهبة أدبية ومن حسن فني إضافة الى تجربته
الحياتية الثرية والعميقة وكذلك أسلوبه ذي النزعة الساخرة...
وهو يمتاز من بين كتاب جيله بنوعية كتاباته وكثرتها.

وما النجاح الذي يتمتع به «جيا بينفوا» اليوم الا حصيلة
دراسته المعمقة والجهود التي ما انفك يبذلها منذ سنوات عديدة.

ولد هذا الكاتب سنة 1953 بمقاطعة «دانفينغ» (Danfeng)
من اقليم «شانكسي» (Shaanxi) حيث أمضى السنوات العشرين
الأولى من حياته بالريف. وفي سن الرابعة عشر اضطر الى
الانقطاع عن الدراسة لكي يتفرغ لخدمة الأرض. وقد كان عبء
الحياة ثقيلًا على كتفيه الهشئين في تلك السن، وهو ما أذاقه
أصنافا من المتاعب، لكن تلك الصعوبات لم تمتعه من الاغراق في
المطالعة - كما هي عادته دائما - أثناء فترات راحته. كما كان
ميالًا للتأمل متفحفا الجبال والأنهار وهو ما مكّنه من الحياة في
انسجام مع الطبيعة. وقد يكون ذلك مرجع ذلك الأسلوب الطبيعي
الحي الذي تنضج به كتاباته.

وفي سنة 1972 دخل الى كلية اللغة والاداب الصينية
بجامعة الشمال الغربي حيث انكب على دراسته بهمة وحزم
يليقان بشاب ذي أصل جبلي. بذلك كانت تلك القاعدة الصلبة التي
انبتت عليها خبرته الأدبية.

وما إن تحصل على شهادة تخرجه حتى التحق ليعمل كمحرر
أدبي بمدينة «كسيان» (Xian). ومنذ ذلك الحين ملكت عليه الكتابة
كل أوقاته وأصبح يكتب باستمرار، وأرسل بكتاباته تلك الى
العديد من دور النشر ولكن أيا من كتاباته المبكرة - ما يزيد على

مائة ألف حرف - لم تعرف طريقها الى النشر. وقد كان يعلق كتاباته التي تعود اليه بعد رفض نشرها على الحائط شحذا لهمتة ولكي يكون يوميا في مواجهة «خيبته» كان يسكن حجرة متواضعة لا تزيد على ستة أمتار مربعة كما أن حالته المادية لم تكن تسمح له بشراء ساعة يدوية لذلك كان يتطلع الى ساعة برج مدينة «كسيان» لمعرفة الوقت. ورغم كل الخيبات التي واجهته إلا أن كلمة واحدة بقيت تتردد في خياله : «الكتابة...! الكتابة...!».

وقد أشمرت عزيمته الثابتة وصدق تعلقه بالكتابة في النهاية إذ إن قصته القصيرة المعنونة «صورة القمر» أمكنها أن تتحصل سنة 1978 على جائزة أحسن قصة قصيرة على المستوى الوطني. ورغم أن هذه القصة مقارنة بكتاباته الأخيرة لا تعتبر من أفضل ما كتب إلا أنها كانت تمثل نقطة تحول في حياته وقد كانت من الدوافع الأساسية له لكي يواصل الكتابة. وقد كانت تلك الجائزة حافزا مهما له لتفجير طاقاته الإبداعية.

وقد أمكنه أن يصدر بعدها العديد من القصص القصيرة ومن الروايات التي منها : «حكاية سيان يوو»، «العائلات في مرتفعات قن الدجاج»، «ديسمبر وجانفي من التقويم القمري»، «كلب السماء»، «الطيش» وبذلك اكتسب شهرة واسعة داخل الصين وخارجها.

«تحت أنفاس الربيع وعلى صهوة جواد مندفع، كان الفائز يتأمل بشعور الرضى كل ورود مدينة شانغهان» هذه الكلمات خير تعبير عن مشاعر «جيا بينقوا» في تلك المرحلة. ورغم ذلك فهو لم تسكره نشوة النجاح ولم تضيق أفكاره، لقد رسم لنفسه لوحة متصوف في وضع تأملي قبالة حائط وعلقها في غرفته لمدة عشر سنوات مستوحيا منها أفكار ومشاعر ذلك الناسك ومعتبرا إياه قدوة له.

كما رسم لنفسه منهاجا للحياة : الدخول الى الحياة الكبرى، دراسة المجتمع البشري، الاكثار والتعمق في المطالعة، الابداع في وحدة.

وبعد أن اكتسب ثقافة واسعة وانفتحت له مسيرة الثقافة في العواصم الأخرى، عاد إلى موطنه الأصلي - المنطقة الجبلية «شانغلو» لكي يستمد منها «المواد الخام» للحياة وهكذا عاش مدة بين الفلاحين مقتسما وإياهم خبزهم اليومي.

واعتمادا على هذه الخبرة التي أكتسبها من المنبع، وضع مجموعة من النصوص النثرية التي تعكس كلها الإطار الطبيعي لجبال «شانغلو» (Shangluo) وقد بعثت هذه النصوص النثرية عند صدورهما في شكل أقاصيص حيوية وتجدا في الأدب الصيني المعاصر.

ومع ذلك فإن «جيا بينوا» يبقى غير راض عن كتاباته ويسعى لتجاوز طرق التعبير الكلاسيكية فهو يفلح مزرعة الروحية عن طريق هذه النصوص النثرية ويطور ذوقه الفني عن طريق كتابة الشعر. وهكذا تتضافر أقاصيصه ونصوصه النثرية وقصائده الشعرية لكي تدفع قدما مسيرته الأدبية. وقد صادف أن منعه الأطباء ذات يوم عندما كان بالمستشفى من القيام بأي مجهود لكنه رغم مراقبة الأطباء وأفراد عائلته تمكن من كتابة نصوص قصيرة.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وإن ما يدهش الجميع في نفس الوقت الذي يجلب له تشجيعهم أن شهرة كتاباته النثرية في تزايد مستمر تجاوزت به أقاصيصه لذلك يرى فيه أهل الثقافة وكذلك غير المنتمين إليها كاتباً نثرياً متميزاً. فهذه الكتابات تعبق بتأثير رومانطقي زيادة على نكهتها الشعرية لا يوجد لها مثيل في كتابات الأدباء الآخرين أما هذه النصوص الثلاثة التي نقدمها في ما يلي فهي خير معبر عن أسلوب هذا الكاتب «فالجر القبيح» نص فلسفي متأثر بالتفكير الطاوي لكل من «لاو زي» (Laozi) و «زهوانغزي» (Zhuangzi) المتمثل في الفكرة التالية : «البحث عن الجوانب الجميلة في الأشياء القبيحة» و «تميز الكاتب في إبراز دقائق الأشياء العادية التي لا يلتفت إليها الآخرون» و «القبيح لا يخلو من جمالية خاصة به».

أما النصان الآخران المعنويان «صورة القمر» و «شجرة الخوخ الصغيرة» فهما ينضحان مشاعر إنسانية على درجة كبيرة من الكآبة وهي خصائص طبعت كتاباته الأولى. وسيجد فيهما القارئ النفس الشعري ورقة الشاعر.

هذه النصوص النثرية الثلاثة كتبت في فترات مختلفة. ويمكن عن طريقها تتبع تطور تفكير الكاتب ونمو موهبته الكتابية.

و «جيا بينقوا» يصف شخصه بأنه إنسان دائم الحركة يبحث دوماً عن مواضيع جديدة للإبداع وهو يوافق تماماً على المبدأ الموالي : «المواضيع الجديدة للإبداع هي تلك التي تعبر عن المشاعر الصادقة والتي يتضح أنها ألصق ما تكون بالموضوع الذي تعبر عنه».

وهو في هذه النصوص النثرية لا يقنع فقط بالبحث عن أسلوب جيوي ولكن يسعى لكي يدخل عليه وسائل تعبيرية خاصة بالقصة القصيرة. وذلك ما يمكنه من تصوير الحياة الاجتماعية وملاحم العصر من زاوية واسعة تمكنه من الاسهام في توسيع مجال المواضيع التي درجت الكتابات النثرية الكلاسيكية على تناولها والتي كانت لا تتجاوز وصف المشاهد الطبيعية ورسم الملامح الشخصية.

وفي النهاية فإن الحياة الشخصية «لجيا بينقوا» التي اقترنت منذ عشرين سنة بالكتابة ليست أكثر من حكاية للتدرب على الكتابة. وهو يدفع نفسه منذ أن أصبح كاتباً محترفاً على صعود سلم «الجنة الأدبية» حيث ينتظره الاكتمال.

هذه هي مسيرة هذا الكاتب.

(*) عرّب هذا النص عن الترجمة الفرنسية التي أنجزها «لو نينغ» (Lu Ning) والمنشورة بمجلة «الأدب الصيني» (Littérature Chinoise)، الثلاثي الثاني لسنة 1993، ص 92-95.

نص : جيا بينغوا

(Jia Pingwa)

تعريب : أحمد ممو

ما اشتكيت من حجر
كثيرا قبيح الشكل قائما أمام

منزلي، كان الحجر أسود
ممتداً هناك كأنه ثور. لا أحد يعرف
منذ متى وجد هناك، ولا أحد يوليه
أي اهتمام، ولكن الأمر يصبح
مختلفاً عند موسم الحصاد إذ يجب
وضع سنابل القمح المحصود في
الباحة لكي تتم الشمس تجفيفها،
وعندها لا تتردد جدتي في كل مرة

الحجر القبيح (*)

من إبداء ملاحظتها التقليدية : «يا له من حجر قبيح ومعرقل
للحركة، يجب أن نحركه من هنا في يوم ما...».

وعندما نوى عمي بناء منزله الجديد فكر منذ البداية في
ذلك الحجر، وعن له أن يدخله في أصل البناء، ولكن تبين فيما بعد
أن الحجر لا يستجيب لذلك نظراً لعدم استوائه ولشدة تكوره. ولم
يقبل أي بناء بإهدار طاقته في تسويته لكي يصبح قابلاً للانسجام
مع بقية أحجار البناء إذ إن مقطع الحجارة غير بعيد عن القرية
وأحجاره أجمل بكثير وأسهل للقولبة. وكان الأمر أكثر صعوبة
عندما فكرنا في إدراجه ضمن أحجار العتبة الرخامية.

وذات يوم مرّ بالقرية نحّات الأرحية فطلبت منه جدتي أن
يصنع لها رحي من ذلك الحجر قائلة له : «اصنعها من هذا الحجر
فذلك سيجنبك مشقة البحث عن الحجر خارج القرية». وبعد أن
ألقى النحّات نظرة على الحجر هزّ رأسه بالنفي قائلاً : إن
حبيباته دقيقة بشكل لا يؤهله لكي يكون رحي.

وفي النهاية بعد أن تبين أن الحجر لا يصلح للصقل كالرخام

الأبيض لكي تنقش عليه الخطوط والتصوير ولم يكن أملس بما فيه الكفاية لكي يستعمل كلوحة للغسيل، ترك في مكانه وأهمل كل أفراد العائلة أمره. ولم تكن تظلل ذلك الحجر أي شجرة من أشجار باحة المنزل، كما أن أي زهرة لم تتفتح قربه. وتدرجيا غطته النباتات الطفيلية والطحالب والوحل. وقد حاولنا يوما أن نحلمزه عن مكانه. ولكنه سرعان ما تخلىنا عن ذلك نظرًا لثقله، ورغم كل الشتائم التي كنّا نوجهها لذلك الحجر ورغم كل تضايقنا منه إلا أننا لم نقدر على إزاحته من مكانه.

وما كان يعزينا قليلا أن الوجه العلوي لذلك الحجر كان شبيه التقرع، وهو ما يجعله يمتلئ ماء إثر المطر. ويحدث أن يبقى به الماء أياما بعد المطر وبعد أن يجف التراب الذي حوله لذلك كانت الكتاكيت تلجأ إليه لكي تقف فوقه مادة أعناقها الصغيرة إلى فوق مسربة القليل من الماء إلى حوصلاتها.

وعند اكتمال القمر في كل دورة كنّا نحن الصغار، نعتلي الحجر قبل الآخرين، لكي نتأمل القمر في استدارته التامة، وذلك ما كان يثير حفيظة جدتي التي كانت تخشى علينا الانزلاق. وصادف ذات يوم أن انزلت من فوق الحجر وجرت ركبتاي. وأصبحنا نسمي ذلك الحجر، الحجر القبيح، إذ لم نجد له أي جدوى.

ذات يوم مرّ بقريتنا عالم فلك، وصادف أن مرّ من أمام منزلنا فتوقّف مندهشا أمام الحجر، ثم عاد بعد ذلك لكي يستقرّ بالقرية، وبعد مدة التحق به آخرون. وانتشر الخبر سريعا أن الحجر ليس إلّا نيزكا سقط من السماء منذ مئات السنين. وهو إذن شيء ذو أهمية خاصة...! وبعد مدة جاءت شاحنة لكي تنقله إلى مكان ما بكثير من العناية.

وقد أثار ذلك دهشتنا إذ لم نكن نتصور أن يكون هذا الحجر القبيح ذا أصل سماوي نزل في يوم ما ليستقرّ أمام منزلنا بعد أن تخلص من ضوئه وحرارته. قد يكون أجدادنا تطلعوا إليه وهو يشق طريقه عبر الفضاء إلى الأرض؟ ... قد يكون ضوؤه الوهاج

أوحى اليهم ببريق الأمل؟ ... هكذا إذن سقط هذا الحجر من السماء وسط الوحل والأعشاب الطفيلية لكي يستقرّ هنا المئات من السنين...! كم يبدو ذلك غير قابل للتصديق...!

قالت جدتي معلقة في اتجاه عالم الفلك بعد أن انطلقت الشاحنة :

- من يصدق أنه حجر غير عادي مثل الأحجار الأخرى ؟ لا شيء في مظهره يوحي بذلك...! ولم نتمكن حتى من استعماله في أصل الجدار أو في أحجار العتبة ...!

- إلى هذا الحد كان لا يصلح لأي شيء هذا الحجر ؟

- لم يكن يصلح لشيء البتة ...!

- هذا بالضبط ما جعله يبقى في مكانه لكي نكتشف أنه على هذه الدرجة من الأهمية ...! لولا قبحة لما أمكن العثور عليه...!

ARCHIVE
- ماذا تعني بالضبط ؟ ...

- إذا بلغ الشيء الحدّ انقلب إلى الضدّ! ... هذا الحجر لم يكن حجرا عادي القبح إذ هو لا يصلح لا للبناء ولا للنقش ولا حتى كلوح للغسيل. ولأنه لم يخلق من أجل هذه الاستعمالات العادية أهمله غير العارفين بقيمته الحقيقية.

احمرّ وجه جدتي وأحسست أيضا بالخجل. وأحسست أيضا كم أنا صغير أمام هذا الحجر الذي يبدو قبيحا لكنّه على درجة كبيرة من الأهمية. ولكن لم أفهم لماذا كان يجب أن يتحمل هذا الحجر في صمت احتقار الآخرين خلال كل هذه السنوات. هذا الحجر فرض وجوده من خلال ما يحمله من معرفة واجه بها جهل الآخرين ووحدة الوجود.

(*) مرّب هذا النص من الترجمة الفرنسية التي أنجزها «زهاو بينغ» (Zhao Ping) والصادرة بمجلة «الأدب الصيني» (Littérature Chinoise)، الثلاثي الثاني لسنة 1993، ص 96-97.

نص : جياً بينلوا

(Jia Pingwa)

تعريب : أحمد ممو

عندما كنا صفارا. كان اهتمامنا
يتصرف الى كل الأشياء
وكان حب الاطلاع لدينا لا
يعرف حدودا.

في تلك الليلة من منتصف
الخريف، وكانت ليلة عيد القمر،
جلسنا في باحة المنزل في انتظار
ظهور ذلك الكوكب الليلي. وكما
اعتدنا ذلك في كل سنة، تركنا

صورة القمر (*)

القمر تنتظر طويلا قبل أن يظهر، فدخلنا الى قاعة الجلوس
وأسدلنا ستائر اليوميو طالبين من الجدة أن تروي لنا البعض من
حكاياتها. كانت جدتنا تخفي الكثير منها في أعماق ذاكرتها!...
وكنا ننصت إليها في انتباه، وهي ترويها الواحدة بعد الأخرى...
وفجأة صاحت بنا :

- انظروا هاهو القمر !...

رفعنا رؤوسنا لنجده هناك. يبدو أن القمر قد دخل خلصة
من بين صفائح ستائر اليوميو. كان القمر يتجول على المرأة
القريبة من النافذة. لا بد أن يكون له قدمان لكي يتحرك بهما
بذلك الشكل. ظهر القمر في البداية كمجرد خط أبيض ثم تحول
الى هلال أخذ يكبر ويكبر لكي يشمل في النهاية كل المرأة.

غمرتنا السعادة واحتبست أنفاسنا خوفا من أن يتفطن
القمر إلى وجودنا فيهرب. كنا نتصور أن القمر يمكن أن يطير
كالغبار! كان القمر يتحرك صاعدا. وأخذ ذلك القرص يصغر ويصغر
الى أن اختفى تماما تاركا المرأة خالية وفي داخل كل منا حسرة.

صاحت بنا الجدة :

- لقد انصرف القمر ...! هو دائما مستعجل ..! هيا الحقوا به ...!

اندفعنا خارج المنزل لكي نجده هناك، ولكن ذلك القرص المدور كان قد أصبح أقل استدارة من قبل ...! بدت أشعة القمر تفرش الباحة يواقيت يشم وفضة. كان ضوء القمر أشد إنارة من نور الصباح.

كانت شجرة الرند تتوسط الباحة بأغصانها المفردة وأوراقها الخفيفة، وقد ظهرت في نهايات أغصانها تلك البراعم التي ستتحول إلى أزهار. اقتربنا من الشجرة ونحن نتصور تلك البراعم وهي تتحول الى نثار من النجوم. لما رفعنا أنظارنا الى السماء بدت لنا النجوم أشد لمعانا.

كان القمر فوق رؤوسنا تماما وتجلى لنا أكبر وأكثر استدارة مما كان عليه منذ قليل وخيل لنا أننا نستطيع أن نتبين داخل قرصه شيئا.

- ما هذا الذي نراه داخل القمر يا جدتي؟ ...

- هي شجرة يا أبنائي! ...

- أي شجرة هي يا جدتي؟ ...

- إنها شجرة رند! ...

نظرنا الى بعضنا في دهشة، ثم أحسسنا بنسمة تداعب ظهورنا محرقة ذوابات شعر كل منا وهي تدغدغنا بشكل لذيذ، سافر كل واحد منا الى القمر وشرع يبحث هناك عن شجرة الرند وعن باحة المنزل وذلك ما أضحك الجدة طويلا وجعلها تقول :

- يالكم من حمقى ...! ألا تعرفون أن هناك من يسكن القمر! ...!

- من يكون يا جدتي؟ ... (كان مدهشا لما أن يسكن أحد ما القمر! ...)

- إنها «شانغر» !

- ومن هي «شانغر» ؟

- إنها امرأة شابة ...

هكذا هي امرأة ... لا بد أن تكون الأرض هناك مبلطة
بالفضة والجدران مبنية من اليشم. مكان على تلك الدرجة من
الجمال لا يمكن أن تسكنه إلا امرأة جميلة ...

- وهل هي جميلة كأختنا الصفري ٩.

- نعم هي لا تقلّ جمالا عن أختكم الصفري.

عندما سمعت الأخت الصفري تلك الكلمات طفحت على
وجهها مشاعر الابتهاج.

- يجب أن تكون لي هذه المرأة التي في القمر ...

كانت الأخت الصفري هي أجمل الجميع. لكن أن نرى على
وجهها كل مشاعر الابتهاج التي كانت تبديها، فقد دفع ذلك الغيرة
إلى أن تنشب أظفارها في أعماق كل منّا. بدأنا نتعارك، كل منّا
يريد امرأة القمر له دون الآخرين.

أخذت الجدة كوز شراب الأرز السكري وصبت كئسا لكل
واحد منّا، قائلة :

- انظروا يا أعزائي ... سيكتشف كل منكم أن له قمرا
مكتملا في كئسه.

على صفحة الشروب بدا لكل منّا قمير صغير يسبح : أخذ
كل واحد منّا كئسه دون أن يجرأ على تحريكها إذ إن أقل حركة
ستجعل القمر يرتجف وذلك ما قد يبعث في الأعماق الكثير من
الحزن، سارع كل منّا الى إفراغ محتويات كئسه في جوفه لكي
يطمئن الى أن القمر لن يفلت منه. صاح كل منّا مؤكدا أن القمر
في حوزته، صاحبت بنا الجدة قائلة :

- القمر يا أعزائي للجميع !.. القمر لن يختفي بعد الآن !...
هياً أخرجوا لتأكدوا أن القمر مازال يتوسط السماء مرسلًا نوره
على الأرض !...

بدت لنا كلمات الجدة على درجة ما من الغرابة، واندفعنا
نبحث عن القمر في السماء، كان هناك. ولكن هاهو أيضا على
أوراق شجرة العنب وهاهو ينعكس على غطاء القلّة وهاهو فوق
المصباح اليدوي لجدّي... هاهو في كل مكان !... أيقظ ذلك
الاكتشاف حبّ الاطلاع في أعماق كل منا وانطلقنا خارج الباحة
نبحث عنه في الأماكن الأخرى.

قريبا من المنزل كان ينساب ذلك النهر الذي يحده شريط
رملي تتلأل حبات رماله كأنها صفيحة مرآة بقينا نتصارع برهة
فوق الرمال قبل أن نبليغ النهر. ما إن وصل أخى الصغير الى
منعرج النهر حتى صاح مبتهجا :

- هاهو القمر !...

وفي نفس الوقت تقريبا صاحبت أختي من وراء منعرج آخر
للنهر :

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- هاهو القمر هنا !...

جريت من مكان الى آخر لكي أجد القمر في كل مكان أذهب
اليه، وانطلقنا نجري مع النهر وفي كل بقعة من صفحته يبدو لنا
القمر متلألئا وعندما رفعنا أنظارنا الى السماء كان القمر هناك
أيضا، وهاهو أيضا في عيني كل منا في شكل قمرين صغيرين.
ولا بد أن يكون أيضا في عيني وفكرت : « كم هو متعدد القمر !...
يمكن لأي كان أن يمتلك منه ما يشاء !... ».

جلسنا على الشريط الرملي الأبيض نتلهى بالحبيبات
البيضاء وهي تنساب بين أصابعنا. كنت مبهورا بضوء القمر
عندما توجهت بالسؤال الى الآخرين :

- ماذا يعني القمر بالنسبة إليكم ؟...

أجاب أخي الصغير :

- هو كل ما أحتاج اليه !

قالت أختي :

- هو أجمل ما في الوجود !

كنت متفقا معها تماما إذ كما قالت جدتي : القمر ملك للجميع.

بقينا هناك نتأمل القمر الأبيض المتلألئ. وفجأة خطرت لي فكرة «إذا كان القمر ملكا للجميع فلا بد أن تكون السماء الواسعة ملكا للجميع أيضا !... في هذه الحالة فالقمر هو بمثابة ذلك الختم الذي يثبت ملكية الجميع للسماء ..»

بعد أن أرضينا في أنفسنا حب الاطلاع بدأنا نحسّ بالتعب فتمددنا على الرمل وقد بدأ النوم يتسرب إلينا. وكنا نلتصق ببعضنا طلبا للدفء.

ARCHIVE
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

(*) مرَّب هذا النص عن الترجمة الفرنسية التي أنجزها «زهاو بينغ» (Zhao Ping) والصادرة بمجلة «الأدب الصيني» (Littérature Chinoise)، الثلاثي الثاني لسنة 1993، ص 98-100.

نص : جياً بينفوا

(Jia Pingwa)

تعريب : أحمد مفر

كثيرا ما عن لي أن

أكتب عن شجرة الخوخ

الصغيرة التي غرستها

في يوم ما. ولكن ذلك لم يتهياً أبدا

وإن كانت هذه الفكرة تراودني دوما

فلاني متعلق بها كثيرا وكنت دوما

أؤجل التفرد لها متذعرا بأنني

سأكتب عن ذلك في يوم ما.

كان تساقط المطر قد اشتد مع

الفسق أدهشني أن يتساقط المطر بكل تلك الغزارة. كان قد بدأ مع الصباح في شكل رذاذ خفيف، وفكرت أن «مطر مارس ذهب خالص» وفي داخلي تنامي شعوري بالرضى. هذه السنة بدأ فصل الأمطار مبكرا وتركت المطر يدغدغ شعري رأسي متذكرا تلك الأبيات من قصيدة «لديو فو»:

«...مع هبات الربيع كانت زخات المطر تبعث الحياة في

الليل.

تسرب تلك القطرات العطشى للحياة في سكون مبلة وجه

الأرض.

وفي أعماقي تنبت فكرة ما انفكت تكبر عن مصير

الإنسان...»

تتملكني أحيانا رغبة عارمة في الخروج الى الحقول، وهي

ما انفكت تتكاثر في أعماقي، ولكن اليوم أحس منذ الصباح، أن

هذه الرغبة قد فقدت نكهتها الربيعية، أغلقت الباب وجلست قرب

النافذة أتأمل شجرة الخوخ الصغيرة، وهي ترتجف تحت الريح والمطر. يا لها من حياة غضة تقاوم براعمها هبات الريح في تعب وتتساقط بتلاتها الواحدة بعد الأخرى لكي يلتقفها الطين الأصفر!!

كم تبدو لي شجرة الخوخ الصغيرة مسنة عجفاء. لقد ذبل جمالها وبدت أصغر من أن تقدر على مقاومة عاصفة مثل هذه. يالها من شجرة مسكينة لن ترى أزهارها تتفتح إلا ليوم واحدا!! وبعثت في تلك الفكرة حزنا عميقا ولكن لا يمكنني تغيير واقع الأشياء يا للأسف فأنا الذي كثيرا ما أقنعت نفسي بقدرتي على القيام بالأشياء التي أرغب فيها ألا يكون ذلك مني مجرد ادعاء ؟

أتذكر الآن خريفا ما، كان ذلك منذ سنوات... كنا في ذلك العهد صغارا وكانت جدتي قد اشترت لنا خوخا من السوق وقسمته علينا لكل منا واحدة قائلا : إنه «خوخ سحري» إذ يمكننا أن نكون سعداء طوال حياتنا بالحفاظ على النواة في أفواهنا إلى أن ندخل عالم الأحلام.

وقد بدت لنا تلك الكلمات على جانب كبير من الصحة لكي يجري كل منا إلى فراشة محتفظا بالنواة في فمه. ولكن كم كان من الصعب علي أن أدخل عالم الأحلام وبدا لي رغم كل رغبتني في ذلك، من المستحيل أن أتوصل إلى حلم لذيذ لذلك نهضت من فراشي لكي أدفن تلك النواة في جانب ما من باحة المنزل. وكنت قد عقدت لها في أعماقي الكثير من الآمال والأحلام.

ثم مرّ الخريف وجاء الشتاء من بعده. وفي دوامة الألعاب التي تملأ حياة كل طفل نسيت نواة الخوخ التي دفنتها في ساحة المنزل، وذات صباح عندما كانت جدتي تكنس الساحة تغطنت إلى وجود نبتة خضراء فإذا بها تتساءل متعجبة : « ماهذه النبتة ؟ » عندها تذكّرت تلك النواة التي دفنتها هناك، كان رأس النبتة متدلّيا في أعلى تلك الساق الدقيقة.

من الغد أصبح الرأس متفتحا ولكن الساق مازالت عجفاء بلونها الأخضر الشاحب وهو يبدو كما لو أن أقل نسمة ستطيح به. أمّا والدائي فقد سخرا من النبتة في حين قالت جدتي : « لا

تؤمل كثيرا من هذه النبتة!... حتى وإن أمكنها أن تصبح شجرة فإن ثمارها ستكون دائما جافة وغير لذیذة!... شيء واحد يمكن أن ينفع معها هو أن يتم تلقيحها...» ولم أكن أرغب في تصديق كلام جدتي لذلك بقيت أنتظر بعناد وفي مطلع كبير الى أن أرى أزهار تلك الشجرة تتفتح وتحول الى ثمار.

كان الركن الذي توجد به الشجرة منزويا، لذلك لم تلفت الانتباه اليها كبقيّة الأشجار الأخرى التي كان يفلحها جدي والتي كانت تتطلب العناية منّا جميعا.

جدي يهوى العناية بالأشجار وذلك ما جعل منزلنا مرصعا بأصص الأزهار وكان الجيران كثيرا ما يأتون للفرجة عندما تتفتح تلك الأزهار في الربيع. وكان جدي يطلب منّا كل صباح أن ننقل تلك الأصص من داخل المنزل الى الحديقة ثم نعيدها في المساء. ولم يكن هناك من يهتم بشجرة الخرخ أمّا أنا فقد كنت أتابع نموها في خفاء.

والحق يقال ان الشجرة كانت تنمو ببطء. ومع نهاية الربيع لم تكن قد تجاوزت التسعين سنتيمترا. وكانت تبدو زرية المظهر ومع ذلك فقد كنت راضيا بحالتها لأنها كانت شجرتي الخاصة وكنت قد أنبتتها من نواة ذلك الحلم الذي تملكني ذات يوم.

كنت أفكر أن الأحلام التي يمكن أن تكون قد روادت إخوتي عندما احتفظ كل منهم بالنواة في فمه قد نسيها الجميع في حين أنني مازلت أتابع من خلال هذه الشجرة الصغيرة الحلم الذي تراءى لي، كان حلمي يتراءى لي أخضر اللون ثم أراه مزهرا وأتصور حياتي بكثير من السعادة.

وصادف أن غادرت في تلك السنة منطقتي الجبلية لأواصل دراستي بإحدى مدارس المدينة وعندها تفتحت عيني على مشاهد أخرى مجهولة وانفتح لي عالم رحب أحسست في مواجهته أنني صغير صغير جدا.

وأصبحت شابا متطلعا الى أفاق أرحب وضاعفت من جهودي لكي أتحصل على المزيد من المعارف. وما أن أحرزت الشهادة حتى

فكرت أن أدخل حياتي المهنية من الباب الكبير وأركزها على قاعدة صلبة، وهكذا غابت من أفكاري القرية الجبلية وساحة المنزل وشجرة الخوخ الصغيرة.

وتدريجياً بدأت أكتشف مدى سذاجتي وجهلي لأشياء كثيرة كما أكتشفت أيضاً أنني غير قادر على تهجئة ولو السطر الأول من كتاب الحياة الضخم. وكان ذلك يزيد في حدة مزاجي كلما تقدمت بي السن. كنت أجلس غالب الوقت ساهم النظرات أتحمس قلبي الذي كان يشيخ في صمت.

واختارت جدتي أن تموت في تلك الفترة ففكرت أن الرزايا لا تأتي إلا جمعاً. وما أن بلغني نبأ مرضها حتى سارعت بالعودة إلى القرية ولكن جدتي كانت قد أخذت مكانها الأخير قبل وصولي ولم يمهله الموت لكي تنتظر عودتي. واجهني المنزل بالكثير من التهالك والخراب وقد أجمع ذلك في داخلي نيران الذكرى وتراءت لي جدتي كما كانت باسمه مرحبة ولم أشعر إلا ودموعي تنحدر على خدي وأنا أسعى إلى الحجرة التي خرجت منها.

ولما جاء الليل جلست قرب النافذة لكي تواجهني الشجرة الصغيرة بجذعها الأعرج الذي كان يحمل أغصانها في تعب. وكانت نهاية أغصانها قد بلغت مستوى أعلى الحائط الخارجي كيف أمكن لتلك الشجرة أن تنمو خلال كل هذه السنوات ؟ يبدو أن جدتي لم يعد يولي الكثير من العناية لأصص الأزهار التي أراها الآن متناثرة في كل الزوايا. قال أخي : إن هذه الشجرة كانت على أهبة حمل الكثير من الثمار عندما قضمتها ذات يوم الشبّاء وقد فكروا عندها في اقتلاعها. ثم جرّدت الشجرة من أغلب أغصانها ولكن الجدة عارضت اقتلاعها وواصلت سقيها بانتظام.

هذه الشجرة التي بقيت هنا كل هذه السنوات كيف أمكنني أن أنساها لما افترق طريقانا ؟... في ذلك المساء، تدأملت في خيالي، صورة الشجرة مع صورة جدتي ولم أعد قادراً على التمييز بينهما.

الآن وقد أمكن لبراعم هذه الشجرة أن تتفتح خلال الليلة

الماضية ها أنا أجلس لكي أنظر إليها لقد مكنتني العديد من الفرص في حياتي في العديد من المناسبات، من تأمل أزهار الغار وهي تتفتح عند أسفل جبال «زوغنان» وكذلك أشجار الخوخ المزهرة على سفوح جبال «الماوي» ولكن الآن ماذا يمكنني أن أقول عن هذه الشجرة الخارجة من نواة «الخوخ السحري» شجرتي هذه وإن كانت بأزهار رقيقة شاحبة إلا أنها أجمل من كل ورود تلك السفوح التي أضاعت قدمي طويلا، كم تبدو لي الآن هذه البتلات الشاحبة كصبيبة مريضة تحاول أن تبتسم، وشعرت بالكتابة تتسلل الى أعماقي وبالدموع تطفرف من عيني.

كم أنا سعيد بأن أزهارها لا تذبل سريعا وأن أراها وحيدة في ركنها لا تقترب منها النحل في حين تزورها الفراشات في احتشام وهي قائمة تقاوم الزمن.

شعرت بارتجافة ما في أعماقي.. هل تكون هذه الأزهار هي تجسيم حلمي القديم ؟...

تواصل نزول المطر طويلا حنفت الشجرة رأسها آلاف المرات لكي ترفعه من جديد في كل مرة. كانت أزهارها مبللة وكنت أراها كأبوة تفقد ريشها تدريجيا. وفي إحدى انحاءات رأسها تحت هبات الرياح، أمكنتني أن ألحظ في أعلى شجرتي تلك، برعما على أهبة التفتح وبدت لي نهاية البتلات بين الأصفر الباهت والوردي الشاحب وهي ترسل في اتجاهي أشعة صفراء ووردية، كذلك العلامة التي تكون بين الأمواج، وجدت في ذلك بعض العزاء.

أيتها الشجرة الصغيرة كم تبدين لي الآن جميلة ! هل سيتفتح برعمك الأخير غدا ؟ هل ستتنضوع منه رائحة نفّاسة. أنا متأكد أن هذه الزهرة ستكون أجمل ما رأيت وستحمل نواة الذّخوخ يمكن أن يصادفني لأنها في النهاية ثمرة أحلام طفولتي.

(ه) عرّب هذا النص عن الترجمة الفرنسية التي أنجزها «زهاو بينغ» (Zhao Ping) والصادرة بمجلة «الأدب الصيني» (Littérature Chinoise)، الثلاثي الثاني لسنة 1993، ص 101-104.

لم

يسبق أن لمحت عيناه
شرارة تنبجس في
السّماء لالة ساطعة
فتلمس زرققتها المصقولة فتحرقها
فتثقبها ثم تنزلق عليها فتحدث بها
تمزيقا داميا يمتدّ تارة وينكسر
متعثرا.

لماذا اخروقت
السّماء ؟

أجل. إنه شهد البرق في
الفلاة وبين ذرى الجبال يكسر بلّور

السّماء الضبابي الندي السّميك. سمع الرّعد وقرقعة المدافع. رأى
سباق الصّواريخ وأشعة الكاشفات، تلهّى بأفول الشهب زمن
الصّبى. وفي الكبر تعشق الأخاديد المزبلة التي تخلفها المراكب في
البحر.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

لكن ...

لم يسبق حقاً أن لمحت عيناه خرقاً مثل هذا. وبرنسه كذلك
يشهد أنه لم يسبق أن أصابه مثل هذا التّقطيع، رغم ما عرف عنه
من مغامرات بين شائك السّبل والأعشاب والحواجز.

- اخروقت السّماء ! صاح السيدس.

في السّاحة حيث كان يمشي بين حشود الأسرى الواقفين
ترجرجت ضجة ترامتها العمارات والأبراج المحيطة بذلك الموقف
الذي - كذلك - لم يعرفه من قبل. وأصل السّير، والضجة ضجة
دماغه مصطدماً بهذا الشيخ السّاهي الذي كان بقلا ثرثارا في
دكان مجانب للمسجد الجامع، أو بتلك المرأة التي مافتتت تمسك

بأنامل أصابعها ثديا مرخرخا وتدفع به لتثبت حلمة مكشّاة بين
شفتين زرقاوين لرضيع تحسبه ما يزال يتنفس، أو بطفل وطفلة
يبتسمان لبعضهما متغامزين مشيرين بكلّ سخريتهما إلى
الأجساد المنتصبة كالأعمدة التي لم تعد تثير أو تخبر عن همّ !

- اخروقت السّماء فانظروا !! صاح السيدس صيحة ثانية.
أفلا تنظرون ؟

كلّا ! لم تكن أعمدة بلا روح تلك الأجساد الواقفة. مكبّلة كانت
محشورة في ميدان الصّمت. محروسة بالحقد النّاهش الفاحش
الفاشي من طرف أجساد باعت أرواحا لآلهة القرف.

كلّا ! كلّا ! لم تكن أعمدة بلا روح تلك الأجساد الصامتة
مذعورة كانت. مفجوعة في قدرة الفهم. مسلوّبة من الإحساس
بالمكان والزّمان بعد أن دهمتها الدّهشة والقفزة من العبث الممكن
إلى اللّامعقول الذي يكون.

كلّا ! كلّا ! كلّا ! لم تكن أعمدة بلا روح تلك الأجساد اللّاهية
اللّاهية الباحثة بأعين من ماء عن منفذ إلى الرحمة، لا الرحمة
الماورائية أو تلك التي يدعيها كلّ شعبان سخّي، بل الانفراج عند
معرفة ما الذي يحدث وما الذي يصير.

- اخروقت السّماء يا قوم. صاح السيدس ثالثة.

أفلا تسمعون ؟

قال الطفل :

- مالهم واقفون ؟

قالت الطفلة :

- أشجار ! هذي أشجار !

قال الطفل :

- أشجار أيش ؟

قالت الطفلة وقد ضحكت صراحة :

- هي أشجار واللّه، هذي أشجار «صبرة» وهذي أشجار «شاتيلا». أعرفها ولو كانت مقصوفة الأغصان.

قال الطفل وقد تحمّست شراة مزاحه :

- وهل تثمر ؟

أجابت الطفلة بحاجبين مقطبّين وعينين ضاحكتين وشفّتين تكبتان ضحكة أخرى قبل أن تجري بين جذوع الشجر لتثير ملاحقة الطفل إيّاها وتوقف السيدس. مشدوها.

لقد تناولت الأغصان وتشابكت فسدت السبل. ثم تناولت الأغصان وأحاطت بجسمه فصار حبيسها. ثم تناولت الأغصان أكثر فأكثر وتلولبت حوله وهو يصيح :

- اخروقت السماء وانشقت أفلا تفهمون ؟

كلّا ! لم تكن أشجاراً متوحّشة تلك المتحرّكة في تشنّج.

كلّا ! كلّا ! لم تكن أشجاراً متوحّشة تلك الغابة التي اخذت
<http://Archivebeta.Sakhrit.com> تمشي.

كلّا ! كلّا ! كلّا ! لم تذهل طويلا. لم تجهل ما يحدث. لم تغفل. كلّا ! لم تهجرها أرواحها ولم تهمل. ملأها نسغ الحرب وحشاها الشوق إلى المنبت الأوّل.

صارت تجري.

لكن الأبراج مسدّسة الأضلاع طوّقتها بكتائب من الأنياب النّاهشة. ثم تراشقت بإشارات وامضة فإذا هي أنياب ترتمي على الشجر بضراوة السلوقي المتودّد لصياد مكر به وبالغابة وبالسماء...

- لماذا اخروقت السماء ؟ قال السيدس. واقفا بين أشلاء

ثم أضاف : لماذا ؟ ثم كرّر ألف لماذا ؟ ولماذا ؟

قال رأس الطفلة بين فخذ شيخ ورجل مخضبة بحناء :

- ألم تكن تعرف أن أشجار مخيماتنا كذلك تثمر ؟

قالت إصبع من أصابع الطفل المنثورة في ترعة من دم :

- هاتي ناوليني ثمرة.

تحركت يد الطفلة حتى بلغت ثديا مرخرخا. ومن جذع المرأة اقتطفت قذيفة واحدة. ثم بحثت عن يد من يدي الطفل فلم تجدها. فألقت القذيفة في الفضاء. فدوت. فانغلقت السماء وهدأت وتمددت في زرققتها الخرساء.

وخرس السيدس. ولم يعد يسأل لماذا.

سمير العيادي

نشاط نادي القصة

في جريدة أخبار الأدب

المصرية <http://Arkhrit.com>

نشرت جريدة «أخبار الأدب» المصرية وهي جريدة أسبوعية واسعة الانتشار مختصة في المتابعات الثقافية والأدبية في عددها الأخير ضمن ركن رسالة تونس مقالا مطولا عن نشاط نادي القصة التونسي ونوهت الجريدة بالدور الريادي الذي يضطلع به هذا النادي الأدبي منذ تأسيسه على صعيد تطوير القصة التونسية واكتشاف الاجيال المتعاقبة من القصاصين التونسيين كما تحدثت الجريدة في هذا المقال عن مجلة «قصص» التي يصدرها النادي ومساهمتها في التعريف بالقصة التونسية ونشرها وتوثيقها ومساعدة القصاصين الشباب على شق طريقهم الأدبي وتحدثت جريدة أخبار الأدب في نهاية هذا المقال عن استئناف النادي لنشاطه بالنسبة لهذا الموسم وسط اهتمام اعلامي واسع.

ولدت

أن أسألك عن عطرك من
أي بستان سرقتَه...
خشيت أن تتهمني بما
لست في حاجة إليه في هذا الزمان
الأهوج.. فصمت مع أنني لم أكن
أعني أكثر من ظاهر القول
ينعشني العبير فتهم الروح
وروضك ريعان أطر...

لكل منطقة

الخاص

وودت أن أقول لك : أمن كل

مساحة وجهك لم يجد خالك مكانا يقبلك فيه غير أرنبة أنفك
لتزهر هذه الشامة التي حيرتني... ووددت وما في نيتي أبدا أن
أتغزل أن أقول لك إن لون عينيك يشقير مع لون قميصك... أمس
رأيت فيهما غسقا ضاحكا واليوم أرى مخملا في لون الطحالب
يسيل بين أهدابك فيغرقني ...

خفت أن أتهم بجرأة غير محمودة لدى النساء مع أنني لا
فرق عندي بين أن أعجب بعينيك أو أعجب بترجسة تترنح على
ناصية سياج... كل جميل يروقني لا أجد في ذلك حرجا.. لكن
المقامات تحتم نسقا معينًا من الأقوال، هكذا علمونا...

دعوتني إلى فنجان قهوة في مقهى القبو... قلت لي : البن
عندهم طيب ينكهونه بالهال والتادل لبناني بجمال خرافي ...
خفت أن أستعذب القهوة معك؛ فيطيب لي المقام وأتعود عليك...
اعتذرت وأنا أحشو أوراق في حقيبتي بسرعة، وقلت لك :
العجوز بمفردها في البيت ولا حتى من يشتري الخبز أو اللبن...
سأجز العمل خلال يومين ونلتقي للتدارس...

عندما أوشك الشّارع على ابتلاعي والأرصفة تغرق تحت
صليل الأقدام... وددت أن التفت لأراك بقامتك الشامخة وأنت
تقطب الجبين بين سيجارة تنتظر اللّهيّب ويد مرتعشة تمسك بعود
الثّقاب.. خفت لو التفت أن تبصرني عيناك فتنسب لي نعتا
مهزّوزا أو يداخلك الغرور... وأنا أكثر غرورا منك لو علمت.. كان
عليّ لأصل باكرا أن أطلب تاكسي ورجلي التي غزتها الدّوالي
تؤلمني إلى حدّ لا يطاق.. لكنّ السيّارات كانت تمرّ كلّها محمّلة
بالرؤوس الأدميّة.. وهي تنفث دخانها وتتقيّ اللّهب... فقفزت في
الحافلة وقد أسعفتني دون سابق إعلام.. لم تكن ملأى. وظللت
معلّقة بالعمود أتداعى يمينا وشمالا وأحوّل النظّر طمعا في مقعد
فارغ أو رجل يؤمن بمقولة «الرجال قوأمون على النّساء».. لكنّي
أبصرتك بنفس عينيك وأصابك المدخنة.. لم أمنع قلبي من
الترنّج لكنّي اكتفيت بابتسام وإشارة خفيفة من حاجبي وأصغدت
ساقِي بوشاق من صلفي حتّى لا أقترّب منك.. استغربتك في
الحافلة.. ليس من عادتك أن تركبها ولا هي في اتّجاه بيتك.. كتمت
حيرتي ونزلت في المحطّة دون أن التفت إليك.. لكن للقلب
أحاديث...

وصلت حينئذٍ والظلام قد خيم ونجى في الصّيف كالخفافيش
لا ننتعش إلّا إذا جنّ اللّيل.. يعجّ الحيّ بالحركة وتحتفل الأرواح..
تتحفّف من أعمالها وتغتسل من بؤسها وقيلظها ويغنيها اللّيل
فتندثر بالحلم والقمر وشاح...

تنتشر الحصر والانطاع وقطع الورق المقوّى عند العتبات..
تذوب الحواجز وتتحدّ المساحات فالليل عاشق مؤنس.. وتصطفّ
القلل والجرار ملتقّة في الأكياس لتبرد وترشّ الأرض مرارا لطرد
القيظ والغبار... مهرجان للماء.. والسّيّقان السّمر تتعريّ
والسّواعد المغناجة والأعناق... بعض الحياء يأخذه اللّيل وتشتاق
النّفوس إلى ما به ترتاح...

للنّوافذ هي الأخرى همسها والضّوء خجلان مخافة
النّاموس، والكوانين موقدة، كل ببراّدها ولون شايها.. وتزحف
صحون اللبّ والحمص والككاويّة ويبقر الدّلاع والبطيخ وتقسم

كلّ جارة على الأخرى بأن تذوق طبيخها.. هذه أعدت «ملوخية» لأنّ زوجها أعادوه إلى الشغل والأخرى صلت رأس خروف نذرا أن يتحقّق حلمها... كلّ يخبئ كنوزه لمثل هذه الوليمة الليلية. ويكثر الودّ وتخفي الأحقاد لكنّ كلّ ليلة هي اللقاء الأوّل أو الوداع الأخير... ويركض الأولاد كالمجانين إلى الحنفية القريبة يتطهّرون من سَمّ هاجرة كالويل ويتعالى اللَّفط والمهممات أصوات مبحوحة ومجروحة ونعسانة وصفيقة ... لكنّها فرحة كلّها في هذا الليل... ياكم يطيب الليل النَّفوس فتهدأ.. وياكم يصدّق القلب ويفضخ زواياه.. لهذا فأنّا أشتاق إليك لو علمت كلّما لاحت هذه النّجوم...

ثمة بؤس رائع في هذا الحيّ وحبّ بعدد العيون.. وللحياة مذاق حلو عندما أدخله... البيوت متداعية والنّوافذ مشروخة لكنّها تبعث فيّ جميعا نغما عذبا له يرقص القلب وتهتزّ الأقدام... وعمي الثّوري ليس ينسى أبدا عند المساء أن يضع شريطه الأوحد الذي حفظه كلّ الأطفال لكنّه كلّ ليلة يبدو متجدّدا ولا يمنع خصرا من التثني وكتفا من الاهتزاز وحنجرة من الترمّم... في هذا الحيّ رغم التراكم ارتاح من سَمّ الطريق وصهيل الحافلات وجحود السيارات ومههمة الأرقام والأوراق وأنت بعينيك القامتين وشامتك المحيّرة لا تشفق تحفوا في الرّوح متناوِبات وتزيد القلب وهنا لكنّي أطردك بشدّة والنّفس مثقلة بهومها وأستاذنا قديما قال : نحن جيل تضحية، لم نخلق لأنفسنا نتجاوز لذاتنا وتهرّما الهموم فمالنا في العشق نصيب ويضيف أستاذنا : أنا أحببت أنيسة... غزالا كانت وشعرا كموج العنبر وجيدا كبرق الفضة... لكنّ العمر يمضي وأنيسة كالشمس لا تنتظر... لأنّ البيت عليّ أن أرميه من مرتبي الزّهيد وأخوتي لا بدّ أن يدرسوا والوالد الشيخ عليّ أن أخذه إلى «حمام الحامة» مع الوالدة كلّ عطلة شتاء. وعمي أفضّ مشاكله مع شيخ المنطقة ألسّت أنا الأكبر وأثقف القوم أصلا.. لذلك طارت أنيسة وبقي خيالها يقف في ليالي البرد الطويلة يحادثن بصوت كأنّه تجوى الملائكة .. ولم أتزوّج إلّا والقلب قد تهرّم وسكن الصّقيع الدم والعظام.

وأنا يا صاحبي رغم أنّك تكتسح منامي ريحا تدمّر ومطرا

هدارا ورغم شامتك تزهـر في الرّوح وتتنفّياً نرجسا وخزامى ورغم
أصابعك الطويلة أوتارا يدقّ عليها القلب مواويله... أخاف أن
ياخذني الحزن إليك وأخاف هذا التعالي في نظراتك فاتراقى
أمامك وأكبت جوعي تدعوني أن أقهره بلمجة في المحلّ المجاور...

لحيّنا يؤسه الرّائع لو تدري. ولي حذب عليهم، سكّانه رغم
بعدهم عن التّائق والحضارة ورغم بذاءة السّنثهم أحيانا وأخاف لو
رأيتهم أن تقبض أنفك ترفعا أو يعتريك القرف... «مئانة» مقعدة
تقضي يومها على كرسيها الجامد تطرّز ثوبا حزينا وبزهد فتقشّر
اللّب أو تغني بصوت مبجوح...

عامر إسكافي شرس ومخمور.. لكنّه إذا استغاق يرقّ وله
قلب حان كحمامة... ويهب... يهب كلّ ما يملك دونما حساب.

وأمي امرأة بسيطة تحني يديها دائما بطريقة مضحكة وتحبّ
بيتها بجنون ولا تقبل أن تخرج من الحي. تقول : يعتريني الخوف
إذا جاوزت أوّل الزقاق... وأرهب أرهب من أناس لا أعرفهم...
وإخوتي أترك مستقبل هرجهم وكضهم وأكلهم بطريقة مشوشة...
هكذا نشأنا... يأتي أبي بالقفة في خضر وبعض لحم وفاكهة ما
حسبما تهب الفضول فلا تدخل القفة إلا وقد دخلت من رمانها أو
بلحها أو برتقالها. والبطيخة إن حضرت تبقر قبل الطّعام وتوضع
تحت السّرير فلا تبلغها أمي إلا وقد تقوّرت وضاع لبّها...

لي عالمي يا صاحبي ومنطقي وأهازيجي وصخبي، لي
الواني وعطوري ومذاقاتي الخاصة...

مالك حلو ومركّ عذب وريحاني قد لا تعجبك ريحه... وأنا
أعلم أنّك لست تقدر على تحمّل ما لم تعتده... لكلّ أفقه أليس
كذلك ؟ ولكل قمر ونجوم فلتبق الشامة تحيرني. ولتبق أنهار
الزيتون في عينيك تغرقني. ولتبق هذه الأصابع أشتيهيها. وليبق
حنينك الغامض واضطرابي وليبق غرورك وهذا التعالي منك
ومني فلكلّ منطقة الخاص.

فوزية علوي
القصرين

«حين يكتب الآخرون عن
الفنان فإنهم يفتحون
له بذلك نافذة على
ذاته.

أما حين يكتب هو عن
نفسه فإنه يفتح الأبواب جميعاً
على مصاريعها. بعبارة أخرى
حين يكشف الإنسان عن ذاته
فإنه يكشف هذه الذات.
الكتابة من خبايا أنفسنا

عندما تستيقظ الذاكرة

تساعدنا في فهم أنفسنا بكل ما تصفه من خير وشر
وعلة وعافية. وفي الوقت نفسه فإن مثل هذه الكتابة
تأخذ بأيدي الآخرين على طريق الثور طريق الكشف
والتخلي...»
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

سميح القاسم - مقدمة كتاب - رحلة جبيلية
رحلة صعبة لغدوى طوقان ص 6

- الليل مازال مغمضاً عيون الحي، والشعاس تداعبه الأحلام،
والسماء تترقب عيونها الصغيرة ابتسامة الفجر...

الصمت سلاسل حديدية تكبل الوجود، صمت متمرد كسرّه
انفتاح باب في حي العثمانية، اندفعت منه سوسن كالمجنونة تجري
حافية القدمين، قميص نومها هفاهف متهدل، عليه بقع حمراء...

خرجت من منزلها خروج فار من الموت... ترسم لهاثها الممتد
مع نسيمات الفجر الندية، وبارتعاش خصلات شعرها تبدو حماسة
مطاردة تطير في دروب التيه والضياح... شعرها منقوش تحركه
خطى مجنونة تفر من لحظة الاحتضار.. ووجه قناع رهيب صاغت

الهزيمة كابوسا... أعضاء متقلصة، وجسم زرعت فيه برودة الوقت
قشعريرة.

انبرت سوسن تطرق باب جارتها طرقا عنيفا متواصلا،
طرقا مفزعا ممزوجا بصراخ واستغاثة :

- سالة ! سالة ! افتحي أرجوك.

صرخات لاواعية حركت سكون الليل. وتوقفت سوسن عن
الطرق لحظات متذكرة أن جارتها حامل. ثم أعادت الطرق وأشفقت
بصياحات عالية مستغيثة بجارتها وبزوج جارتها.

- سالة ! الحطاب افتح ارجوكما !

ترددت الطرقات في فضاء الحي. وأزعجت نعاس النائمين،
وامتزجت الأصوات بنباح الكلاب ونقنقة الدجاج. فتحت سالة
الباب منتفضة من الفرع منفضة الشعر. هبت هي وزوجها
وأطفالها فزعين.. وسمعت الجارة الأخرى الضجيج فجرت مهولة
تستجلي الخبر...

تحلق القوم حول سوسن المستغيثة وسألوا وأمطروها أسئلة
وهي تبكي وترتعد. وتغص بالعبرات التي <http://www.alukah.net> تختلجها. وبقي
السؤال تتقاذفه الشفاه لحظات غامضة ثقيلة تداخل فيها الكلام
بالبكاء. هدأت الجموع من روع المستغيثة وهم في هرج ومرج
كلهم حيارى، والقلق يوقد أسئلته من جديد :

- مالك ؟ ماذا أصابك ؟ من جرحك ؟ إصبعك نافورة ؟

- الدم سيفرغ منك. ثوبك صار يقطر دما.

وأجابت سوسن تستل الكلمات من حنجرتها وتطوع لسانا
كاد يتصلب :

- كنت .. كنت نائمة.. نمت في ساعة متأخرة إذ تملكني أرق
لأنها أول ليلة في هذا المنزل الجديد... أخذت كتابا وانغمست في
قراءته على ضوء السهارة الى أن أدركني النعاس... وفي أعماق
النوم شعرت بالغطاء يسحب من فوقني سحباً مترققاً.. أبصرت

رجلا عاريا تماما يشد في يده سكيننا. ومع اضطرابي استطعت معرفة السكين هي سكين الخبز تركتها على طاولة المطبخ سألته في ارتباك :

- من أنت ؟ من أين دخلت ؟

وتذكرت الباب الفاصل بين غرفتي ودكانكم وظننت أن الباب هو أصل ذلك البلاء.

أجابني : أس لا تتكلمي والا قطعت رقبتك بهذه السكين.

وأمسك يدي بعنف ولامست السكين جلدة رقبتني..

خفت من الموت في تلك اللحظة.. تخيلت قلبي توقف عن الدق... بكيت دموعا غزيرة حارة وحملت على الاشفاق بي.. رجوت أن يلعن الشيطان ويعدل عن فعلته...

لم يبال بدموعي وتوسلاتي وحاولت نزع السكين من يده فجرحت أصابعي، لحظتها شممت رائحة الضمة من فمه فتضاعف خوفا وتعاظم جزعي. كدت أتقيأ. توسلت إليه في تودد حقيقي ومتصنع دون فائدة.. ظلمت أقاوم والدم تسربت منه قطرات إلى فمي. وتسقلت رائحته التي أنفقي وأخسست بخزائره تسيل على صدغي وتيقظت الشجاعة في داخلي فرجوت وأنا أمدحه :

- أنت شاب وسيم.. لا تبدو عليك ملامح الشر. كن ابن حلال تنح عني ارجوك يمكن «نوليو اصحاب» هذه فضيحة لماذا تدنس عرضي أول ليلة اسكن في حيكم. هل هذا كرم الضيافة عندكم ؟

وكان اندفاعه أعظم من توسلاتي وقد نفخ الشيطان جبروته في نفسه.. كان ذئبا مفترسا جثتي وغرز مخالبه فيها وشاهدت وحشيتها.. مصرعي... وانصرف ظافرا وعلى وجهه علامات التوعد والتهديد. «إذا نبست بربع كلمة ؟». القوم ينصتون، عيونهم اندهاش وصمتهم انفعال، وواصلت سوسن حديثها المتوتر والعرق يغمر وجهها :

- تزاحمت علي الاحلام في تلك الليلة. ورأيت نفسي أسير

في مدينة غريبة... منازلها عالية قممها مذبذبة تضيق ذواباتها في السماء... بناءاتها عجيبة... هندستها متشابكة مخيفة... تبدو مدينة مسحورة... غريبة لم أرها في حياتي.

بقيت في شوارع هذه المدينة أمشي بلا هدف ولا غاية أمشي علني أعثر على بشر فكان الناس ماتوا ولم يبق فيها غير الحجارة والضباب والصمت... فتشت .. باب يدفعني وآخر يجذبني... فتشت على أثر لحي فلم أفلح.. درت الى حد الغثيان، وتسارعت خطاي على طوار الأرصفة رتيبة مزعجة، واعترتني وحشة. وعذبني العطش والجوع.. صرت أبحث عن منفذ يخرجني من هذه المتاهات فلم أفلح، وتهدت في شعاب البرية. صرت ألثت وأغتسل جسمي بعرق بارد. وشملني رعب كبير.. وبقيت أعدو وألثت وأبحث وألثت.

دخلت تعاريج موحشة... حائط يرتدي ثان وثالث واستطعت أن أتبين على جدار بعض الدور صورة طفل يبكي ويده قطعة خبز يلوثها الذباب، ولم أعرف سبيلا للخروج من تلك المدينة، وشعرت بالاختناق وجف ريق في حلق، ومات صوتي في حنجرتي، بعد هذا الكابوس شاهدت نفسي فائقة ولا أقدر على الصياح ولا على الحركة، ولص يفتح حقيبة أوراقتي ويستحوذ على محتواها.

تكلم الخطاب غاضبا : من يكون هذا الملعون ؟

أجابت سوسن - سألته صمت. ثم أجاب : أنا جارك، قالها في لهجة من يريد طمأنة صاحبه. كأن توسلاتي أثرت في نفسه.

قال الخطاب : تذكرني ملامحه وسماته. لا بد أن نعرفه ابن الحرام. لقد سكنت فتاة عانس هذا المنزل ولم يسط عليها أحد.

قالت سوسن : أشقر عيناه زرقاوان او خضراوان. أنفه مستقيم، شعره مجزوز عند الجبين، قصير القامة عريض الكتفين، له شعر كثيف في صدره خمري البشرة ورائحة الخمرة جعلته مثل الخنزير.

- وماذا يرتدي ؟

- سوسن : لقد قلت لك دخل عاريا نزع ثيابه في المطبخ.

تدخلت سالمة مقاطعة : لا يكون غير سامي ابن الحاج مصباح... أبوه رجل ورع، أما النار تخلف الرماد.. إنه الوحيد الذي يقلب الحي رأسا على عقب ويزرع فيه الفوضى بأعماله الشنيعة.

شاب عوق أتعب أمه وأباه وألحق بعائلته العار والمشاكل. في المدة الأخيرة سطا على منزل علجية وقبض على كل دجاجاتها واختلى هو وأصحابه بغنيمة. وذبح الدجاجات وقضوا بها ليلة خمرية انتهت بخصومة بينهم شج فيها رأس صديقه كاد يقضي عليه بضربة قاضية. ثم تذكر يا حطاب حكايته مع بنات الكبران كانوا لا يزالون ساهرين. صعد على سور منزلهم ودخل غرفة البنات، وهو يترنح سكرًا. تطفنوا اليه وقبضوا عليه وأوثقوا رباطه بحبل. وانهل عليه الكبران ضربا ولكما ثم وضعه في المرحاض قضى ليلته فيه. وأقسم أن يبلغ أمره للشرطة. لكن أمه المسكينة لما سمعت جاءت وترجته أن يسامحه ويكت وتوسلت وقبلت يدي الكبران وأعدة برادعه فعفا عنه وانسدل ستار الصمت على تلك الحكاية.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

أضاف الحطاب : كيف دخل ؟ ومن أين دخل ؟

سوسن : وجدت نافذة المطبخ مفتوحة يبدو أنه متعود على هذه الصنعة تعمد فتحها بالعنف.

سالمة : لماذا بت ليلتك الأولى وحيدة ؟

ريم العيساوي

السَّمَاءُ

سرب من الوحوش البرية
ثلثهم جثث الغربان..
الغربان سواد ويسربل
الكون يخفق أنفاسه.. ينشّ وجها،
يعفّره بنهيق مبهم. أمدّ يدي إلى
السَّماء أستوقف غيماتها عن المضي
قدما إلى الأمام.. أعتصر لبنها،
أفتّح فمي.. لا شيء غير رمال
الصحراء، أثقيًا.. منذ زمن لم
تتزعج تلك النخلة عن مكانها..

رقصة الشوارع

جنوبية سامقة تدغدغها رياح الشهبلي، تراودها رياح الشهبلي ولا
تنحني، أمدّ يدي إلى الرطّب، أضع، أبتلع الثّواة، يتعلكني
المغص، أتلوي، ألتوي، يلويني الشارع.. أغوص في أعماقه، تتعالى
حشجة الرصيف.. من منا كوّم الحجارة البازدة أنت أم أنا ؟
يحدجني الشارع بنظرات باردة كصحيفة أخبار رديئة يعمل أظافره
في صورتي، تحت هذا الخير سنكتب.. أقتلعت شرايين قلبها حتّى
لا يخفق مرة أخرى.. قطعت يدها حتّى لا يستبيحها القلم..

زخات مطر رقيقة تتسلّل إلى جسدي ألح أطراف ثوبي،
أنغرس فيك كنخلة في عمق الصحراء.. ضمّني أكثر لا أحتمل
الشعور بأنّ الوطن يخونني، ضمّني ربّما يعطف الربّ، مازالت
في أخبار طازجة لم تفكّ سطورها بعد.. شارع مجنون يلتفّ
حولي.. أنت وحدك الحاوي أنفخ في مزمارك وهياّ نبتدئ رقصة
الزّنوج.. لأنّ ديمترا ولتضع البخور في معبدي آخر مسجد
أسقطته نجمة سوداء فلنصلّ على هذا الإسفلت، يلتوي الشارع
أكثر.. وجهك الضباب يشطرنّي إلى نصفين.. المنصف طرد من
الدّراسة هل تناهى إلى مسامعك هذا الخبر ؟؟ ضبطوا لديه كمّية

من السّجائر والحقن ومسحوقاً أبيض.. صادروا أشياءه تلك،
حقّقوا معه.. وقف المنصف لأوّل مرّة مرتعشا واهنا.. لم يجلجل
بضحكته المعتادة قاعة التحقيق. لم يرفع نظره عن الأرض. لماذا يا
المنصف ؟ أجاب بسخرية لازعة : أردت أن أساهم في السّوق
العربيّة الأوروبيّة المشتركة.. لم يكونوا يا المنصف ليكشفوك لولا
أن وقفت بثينة تلك الزّهرة البريّة اليانعة تعبت بأزرار ثوبها
تصرّ على فتحه أمام الأستاذ.. جذبتها صديقتها هدى.. صفعتها
صفعات متتالية انخرطت بعدها بثينة في بكاء مريع.. لعنتك
ولعنت اليوم الذي زغردت فيه القابلة تبشر أمّها بأنثى تقاسمها
عناها. ألم يؤلمك وجه بثينة وهي تعطس وتمدّ إليك يدها
الرأعشة فترتدّ صفراء كالقحوانة عطشى.. أبوها كان يريد أن
ينشب أظافره فيك، يطلحن عظمك ولحمك، وحدها دافعت عنك، لم
تشأ أن توضع صورتها إلى جانب صورتك.. جميل يقتل بثينة ؟
من يصدّق ؟ قتلها بمسحوق تنشقت ذات فرح مذهب.. ذات دوار ..

يواصل الشارع الالتفاف الالتواء الانكسار الانحدار..
تستهويني العشرة كجنين في بطن أمّه يصرخ حالما يجتثونه منها
لأنّه يدرك أن النور الحقيقي وأخوها لا خارجها.. أمك لا تنفك تزور
قبور الأولياء تهبهم كل ما أدرته من شمع وهجور وقطع نقدية
تتسلّمها السّاهرة على حرم الولي ناطقة بلفة غير مفهومة ربّما
دعاء بالخير والبركة أو لعنات يستسيغها السّدج باذان صاغية
وقلوب خاشعة.. أمك لا تتمنّى سوى جنّة صغيرة بها خادمة تقيها
قرح المعدة وضغط الدّم، وجيران يتقنون فنّ الثرثرة، جهاز فيديو
وهواشي لالتقاط جميع الموجات ما أوضع جنّة البلهاء، أرايت ؟
جنّتي أن تكون قويا كعاصفة، حالما كنرجسة جميلا كمطلع أغنية.

يتسلّل اللّيل إلى كيان الأرض، يلونّها بلون الحداد يسربل
الفضاء تهبّ النّجوم لتشبيح جنازة الشمس، أستحثّ الشارع على
الانتهاء فيشمّلني، يجذبني إلى القاع. «دعني يا ابن الكلب ماذا
تريد ؟» عطرك ينفذ إلى مسام جسدي، عطرك الشرقي الفائح
قرنفلا ونداً وصندلا.. أعيريني جسدك لأرسم لوحة ديفنشي،
سنمت لغة المدّ والجزر دعني أبصق على أسفلت المدينة أفضع
عريها فالعاهرة لا تضع برقعا.. سافضح اليوم مساحيقها

الرخيصة، هذه المدينة لا ترتوي تستلذ عرقنا هي مصدر الجريمة،
دعني أطعمها، أرفسها بساقي، أهشم جمجمة الفخر الزائفة، أحطم
أسطورة مجدها، سناء رمت بنفسها في النار، أهدت جسدها
البض، جمال وجهها للحريق، تفرقت كدمية، سناء صبيّة حلوة
تزوجت الموت لتلد الثورة.

- قصّة قديمة هات غيرها.

- طفل ينتظر كيس أرز من يد تخنق شجر الأرز، طفل
يحاكم علماء التاريخ، طفلك أين هو ؟

- هو هناك يرسم بحرا، يلقي بصنّارته يجذب، يجذب،
يجذب، لا جدوى في مواصلة الطريق لن ينتهي حتى ينهيني،
طبققة حذاشي تنسجم مع طبققة عظامي، لست سهلة العصر، أنا
الحية فلتكن الحاوي، أعزف ولنعد لرقصة الزنّوج، وجهك ينزّ
قطرانا أسود، وجهي بلون الخبز الأسمر فلا تحلم بأن تنبت
السنابل في حقلك الأجذب لن يستهويني الخصب فانجب شارعا
كالحا مثلك.

رقصة أخيرة وينتهي الطفل من صيده، رقصة واحدة ويطفح
بالسعادة وجهه تغمره فراشات الفرح الفضية، تلمسه السمكة
يخبئها في صدره يعدو نحو الإله يبشّره بانتصاره، رقصة واحدة
تكفي ليعود الحلم بجنة الفقراء يدغدغ حواس أمك فتبهى الشمع
والبخور.

- لا أستطيع قلت... بتحدى.

بصقت على الأرض. أحتوي الرصيف لعنتي دما وقيحا
كثيرا، يلفني الشارع أكثر يلتف بي يخدر حواسي، يتوقف كل
عضوفي.

- هيا اعتقني، اعتق عصافيري، عصافيري تققت الشوارع
وعري الأرصفة شارع طويل مظلم متشعب، النخلة أهدت رطبها
لريح الشهيلي، تجوع الحرة ولا تجوع الحرة فيساقط الرطب دما
يروى جذب الصحراء تجوع الحرة فينمو من عراجين جوعها
الصبار يطلع الصباح مشرفا طلقا متفتحا..

يلتوي الشارع فاليوه يستمهلني ليراقصني رقصة الزنّوج
حين يستجدون المطر، أرقص، أتلوى، يرقص، يحتويني.

عائدة بن جئات

توقف

القطار زافرا أنفاسه الأخيرة.
نزل مصباح ببطء ونظراته
الخائفة تتابع قدميه
المتعثرتين. لفحه هواء بارد أثلج
وجهه المثلث الشكل كأنه هرم
مقلوب، ارتعد بردا لكنه مدَّ يده
ليساعد العجوز أمه على النزول.
لفظها القطار كتلة عظام بارزة
وملاءة حمراء فاقمة تعبت بها
الرياح العاصفة. بصقت أرضا.

ونهب جمار أخيرا

تأوهت، ثم وقفت تنتظر تحرك الإبن.
ألقي نظرة متسائلة عن المكان ثم سارء تبعته وقفتها القديمة
فوق ظهرها بها الشيايب والزاد وما أنخرته من أيوم تزوجت.

يترنح وجسمه الهزيل المتوسط الطول يثن تحت وطأة قفة
أخرى جديدة. بالقفة عطور ولبان وبخور، وقطعة قماش مطرزة
بالفضة ومراة مزركشة وقلادة وأقراط من العقيق الملون، مع
الشاي والسكر والحلوى، وديك ودجاجة اوقفهما معا بحبل ولم
تنس العجوز صفيحة السمن والعسل. غطت القفة بخرقه زرقاء
وهي ترفع عينيها الي السماء داعية بالخير والستر.

سار وأحلامه تعبد له الطريق وصوت أمه يكمل بقية الدعاء.
بيوت خربة كالعشش. ابحار مكدسة وغبار ووحل في هذه القرية
تقطن علجية ابنة خاله. حتما هي في مكان ما تنتظر. لا تعلم
بقدومه. مذ كانت في العاشرة من العمر لم تره ولم يتقابلوا ومع
ذلك فلا بد ان تكون في انتظاره هكذا تقول أمه وهو يصدق ما
تقول هذه العجوز النحيلة الطويلة كتنخلة عاقر تمرّد عليها البلع.

كان يعمل في حقل امام القرية يحرك الارض قبل ان يلقي
بالبذرة حين وقع الاب وبيده حفنة تراب تتفتت. اسرع اليه بقلب
خافق فوجده ميتا. كان أول يوم نزل فيه المطر.

بكت الام ولطمت خديها امام الاهل والجيران ثم جذبتة الى
ركن الكوخ النظيف دوما. قالت والدموع تملأ عينيها الغائرتين
« مات والدك يا مصباح ولم يترك لنا شيئا وقبله مات ابني
الوحيد بركلة من قدم شور هائج. وكل ما اخشاه ان ارحل بدوري
وتبقى وحيدا فلا تجد من يقدم لك لقمة ساخنة لذا لا بد من
الزواج يا ابني. فلنذهب الى خالك عبد الرحمان نخطب ابنته
علجية، أنسيت ان فاتحتكما قرئت عند ولادتها. غضب فرق بيننا
من سنين لكن الاخوة لن تطعن ايدا ».

القت بيده صرّة. فتحتها كانت بها قلادة واقراط من العقيق
وبضعة دراهم. قالت والدموع تتكسر فوق التجاعيد « ليس غير
ذلك. هذه النقود لك. ستكون مهر علجية ».

تذكر فجأة البنت الصغيرة صاحبة الصفائر الطويلة
والعينين السوداوين الكبيرتين. اهتز القلب واشتدت حرارة
الجسم الهزيل. من شدة الفرجة التهم حزمة يصل وغمس في
الزيت والسكر رغيفا كاملا، ابتلعه على عجل وبات يحلم. ترى ما
حال علجية الآن ؟ هل كبرت وما عمرها بالضبط ؟

انين امه من الخلف يجذبه :

- يا ابني الا تسأل عن المكان ؟ لقد نسيت اين يقع الكوخ
واختلطت معالم الطريق.

يضع القفة ارضا، يلتقط انفاسه قبل ان يتجه الى الامام
حيث الكهل يجلس القرفصاء ورأسه ملقى في شبه غيبوبة فوق
الحائط الخرب. يلقي بالتحية. يفتح الكهل عينيه ولا يرد : يسأل
وقلق خفي يزحف نحوه :

- سيدي، اريد بيت شيخ الكتاب الا تدلني عليه ؟

نظرات خاملة وملامح فاترة. بيد معروقة يبحث عن علبة
النشوق. يستنشق المسحوق الغامق بلذة ثم يروح ضاحكا.

- سيدي اني اسأل عن مدب القرية. الا تعرف الكتاب حيث
يتعلم الصغار القرآن، حتما اطفالك يذهبون اليه.

يقف فجأة ليعدو في الطريق مصفقا. انهال السوط على
قفاه وهو ما زال يضحك ويصفق. مرت العربية يجرها حصان هرم
داكن الحمرة. سأل لمن العربية ومن الرجل الذي جلده بالسوط ؟
تبخر السؤال ولم يجد الجواب. عاد الكهل يستنشق ما في العلبة
وعاد مصباح الى قفته مسحوقا.

امه العجوز خلفه بملاءتها الفاقعة الاحمرار وخلخالها
النحاسي المنقوش تزدرد خيبتها :

- ماذا ارى يا ابني ؟ ما امر صاحب العربية ؟ ضرب الكهل
بالسوط وهو يضحك ويصفق ولا يرد حين نسال.

- وهل عرفت شيئا يا امه. لكن اين الكتاب ؟ أين ؟

شهق الديك بصوت مخنوق وسكت. يده تصلبت وهو يكاد
يقع على وجهه مع القفة. تذكر ثانية ضفائر علجية، وجمال
العينين السوداوين فاندفع خلف طريق الامل.

طفلان على قارعة الطريق يتنازعان على رغيف، تقدم من
احدهما باسم :

- ايها الطفل الا تدلني عن وجهة الكتاب ؟

ضحك الطفلان ولم يجيبا. اقتربت العجوز لاعنة في سرها
خيبة مصباح في السؤال :

- الستما من تلامذة الشيخ عبد الرحمان ؟ الا تحفظان
القرآن الكريم ؟

يتبادلان الضحك المعتوه ولا ينطقان بحرف. وقع الرغيف
المتنازع عليه ارضا والسوط يفرقع في الهواء. صفقا وازداد

ضحكهما والعربة تنطلق وسط الطريق المترب. اراد ان يسأل
ثانية ما امر هذا العجوز الاسود ؟

لم يجلد الكبار والصغار وهم يطلقون الضحكات المخبولة
بصمت غريب لكنهما كانا قد هربا.

تاوهت امه وخلخالها يرتطم بحجر :

- عجيب سلوك هذه القرية. لم تكن تضحك ببلاهة منذ
عشرين سنة ولا كانت تصفق بمهانة والسوط يجلد الجميع. ماذا
جرى يا مصباح الا تتكلم ؟ اين خالك واين الكتاب ؟

يتنهد وجسمه يرتجف بردا وتعبا.

- ربما مات الشيخ عبد الرحمان وتهدم الكتاب. يا لسوء
حظك يا تفاحة مات زوجك وضاع الاخ. يضع يده على فمها
كالكمامة قبل ان تبدأ التديب. يصرخ بضيق :

- لم نعرف شيئا بعد فانتظري. انظري الم تتذكري معالم
القرية واين كان كوخ اخيك ؟

- كاني المح المكان لأول مرة جدران خربة وافواه مغلقة.

- لكن لم يلتزم اهل القرية الصمت ؟ الا يتكلمون ؟

- لن ارتاح الا بعد ان اجد اخي. فلنسأل القرية كلها. لا بد
من كلمة للغريب.

يسيران بين اطلال الماضي عجوز طويلة كمنخله عاقر وفتى
هزيل الجسم. مثلث الوجه، ثياب قديمة تستر بدنه وقفة كبيرة
فوق ظهره. لا اثر للكتاب ولا للشيخ عبد الرحمان. تبخرت امانتي
العرس وضاعت علجية تحت ركام الصمت.

سأل رجالا ونساء واطفالا، الكل يصفق ضاحكا لصاحب
العربة الاسود وهو يتجول في انحاء القرية، باسماء مزهوا
وسوطة لا يكف عن جلد الظهور المنحنية. لسعته ضربة فجأة.
انهالت اخرى على ظهر العجوز الذي لم يتقوس بعد رغم التعب

والشيخوخة. تدرج ارضا ووقعت القفة= في التراب، صاح الديك
وقاقت الدجاجة. اسرعت بالهمس وجسمها يطلق هلما :

- اسكت يا مصباح. لا تجاهر باللعة ربما في الجلد حكمة.

وقف يمسح التراب الذي لطح ثيابه والغيط في عينيه
يصرخ :

- ما امر هذا الزنجي ؟ ولم يتقبل الناس الجلد بصمت بل
يصفّقون بغباء ؟ اني اكاد اجن.

- فلنفلعل مثلهم. نضحك ونصفق قبل ان يسيثوا بنا الظن.

- وعلجية هل ضاعت إلى الابد ؟

تقفز العجوز وهي تلمح امرأة قادمة ببطن منتفخ بجني
ثقيل وجرة من طين فوق ظهرها. بصوت باك تسأل :

- ابنتي، الا تعرفين كتاب القوية ؟ اريد الشيخ عبد
الرحمان. زوج عائشة ووالد علجية. انه اخي وهذا ابني مصباح
جاء ليتزوج. فاتحتهما مقرونة من سنتين. بعد مجيئي علجية الى
الدنيا بدقائق. عينان مدهولتان وفي اخرس. تواصل الطريق بلا
التفات. فجأة تقع الجرة ويسيل السمن فوق التراب الظامئ.
انهال السوط وقهقه العجوز الزنجي والعربة تركض في فرح
مجنون. ضحكت المرأة وصفقت قبل ان تنكب على السمن تلحسه.

هرم، نحيف كعمود حطب. لم يكن عملاقا ولا قويا ولا صاحب
هيبة ووقار فما امره مع قرية الصم والبكم ؟

زحف اليأس وعربد الجنون بصدوره، صرخ بأعلى صوت
يسأل المارين عن الشيخ عبد الرحمان. لا من يجيب. الا الافواه
الضاحكة والايدي المصفقة عند مرور الزنجي. واه لا تكف عن
الانين بصوت متقطع..

- افعل مثلهم يا مصباح. اخشى ان يسيثوا بنا الظن.

تورمت قدماء وتمزق المداس الذي اشتراه من سوق الجمعة.

تحت سور عتيق جلس والقفة امامه. جلست العجوز قربه وقفتها
ما تزال فوق ظهرها الذي لم يتقوس بعد. بكّت ولطمت خديها
منادية الزوج الميت والاخ المفقود. بكى وخيال البنت الصغيرة يمر
امام ناظره. علا نشيجهما مخترقا الصمت والضحك.

فجأة امام كوخ متداع نهق حمار وذيله ينش الذباب خلفه.
زغرد الامل وعادت الفرحة الى صدره. نظر الى الحمار واسارير
وجهه المثلث تنفرج عن ضحكة. اخيرا نهق حمار. في قرية الصم
والبكم نهق حمار.

- اماء، اسمعت ؟ اخيرا نهق حمار. هل اصدق ما اسمع.

الفرحة تقفز فوق تجاعيد الوجه الشاحب. تهتف وهي تجذبه
من كتفه :

- لا تضيع الفرصة يا مصباح. اذهب واسأله عن الكتاب
وعن الشيخ عبد الرحمان ربّما دلّنا على خالك، تحرّك نهق الحمار
ثانية، عادت تبكي منتظرة بينما قصد مصباح مكان الحمار
وصوت الام العجوز يتمزّق خوفاً :

- اضحك قبل ان تسأل يا ابني حتّى لا يسيئ بنا الظن،
اضحك...

حياة بن الشيخ

عبد الرحمن مجيد
الربيعي

لعل

- 1 -

موضوع «التقنيات القصصية»
وهو أحد محاور ندوتنا
هذه من أصعب المحاور التي من
الممكن أن تكون موضوعا لدراسة أو
مداخلة لها طابع الشهادة الشخصية
كما أحاول أن أفعل هنا في
مداخلتي هذه.

التقنيات القصصية أسئلة متجددة واستطرادات أخرى

كما أن مداخلة في محور كهذا
تتطلب قراءة ملهمة بما أنجز في مجال القصة والرواية العربية
على امتداد مساحة الوطن العربي، وليس عند الأسماء المتداولة
بكثرة فقط بل وعند تلك الأسماء المغيبة والمدفوعة نحو الظل
أيضا وبعضها من هو أهم بكثير من المتداولين وقد ضمت كتبي
المدرجة في باب النقد تعريفات بأعمال وأسماء حاولت الاقتراب
من بعضها والتنبيه لها أو التبشير بها رغم أن كل هذا قد تم وفق
قراءاتي المزاجية غير العكرة، التي لا أدعي فيها قراءة كل ما كتب
بل معظم المهم فيه من وجهة نظري.

إن الذائقة العربية هي ذائقة تقليدية غالبا وعلى كل
المستويات رغم أن جهود المحدثين في الأجناس الأدبية كافة وخاصة
الرواية، ثم الفنون الإبداعية الأخرى كالرسم قد اثمرت في
تأسيس ما هو خارج عن التقليدي. لكن هذه الأصوات لم تقبل من
قبل المتلقي، ومازال أمامها جهاد آخر من أجل أن تحقق ذلك.

نص المداخلة المقدمة الى ملتقى نادي القصة الذي عقد في مدينة الحمامات للفترة
1993/6/5.4.

إن الكتاب الذين يجد القارئ العربي هوى في متابعتهم هم أولئك الذين يمكن له أن يقرأهم بسهولة ولا يجد أية صعوبة في قراءتهم، كما أن هذه القراءة غالباً ما تحقق له عنصر المتعة وربما العذلة أيضاً وهو ما ينشره هنا وهناك كتاب آخرون وظفوا المآسي الاجتماعية المتكاثرة والمتشابهة إنسانياً، وكذلك المشاكل السياسية وما تحمل من اختلاطات في كتابات تقليدية، لكن انتماء أصحابها أو احتسابهم على أحزاب وحركات سياسية كان لها حضور إعلامي قوي وخاصة في مرحلة ما قبل انهيار الاتحاد السوفياتي قد ساعد في فرض هذه الأسماء، وبقاء هذا النوع من الكتاب الذين يعانون من احتضار إبداعي قد يطول بحكم الاستمرارية وشيوع الأحكام الإيجابية عنهم في الأوساط التي كانت فضاء للترويج لهم، المصانع، الجامعات، بعض فئات المثقفين... الخ ولا بد أن تنحسر ظلالهم وتخبو هالات أسمائهم.

ونلاحظ هنا بالنسبة للفئة الأخيرة أن النقد قد ساهم في توريث القارئ وجعله يدور في أفاق هذا النوع من الكتابات. فالقارئ هنا ضحية وهو بحاجة إلى تغيير هذه الصورة له ولذا نجده ما أن يسمع رأياً مغايراً يأخذ هؤلاء الكتاب الذين سميتهم بـ «آلهة التمر» (1) حتى يتزعزع ما خبأه من إنطباع يصل أحياناً حد الإيمان غير القابل للنقاش، وهناك مثال بتجربة كنت طرفاً فيها وتتعلق بوجهة نظري في أهمية ما كتب الروائي السوري حنا مينه، وهي وجهة نظر شخصية غايتها تقييم المبدعين وفق حجمهم الحقيقي إذ انني ما أن نشرت رأيي فيه إلا وبدأ العديد من الأصدقاء أو المتابعين بالافصاح عن الرأي الحقيقي الذي أخفوه في دواخلهم عن هذا الكاتب، ولكنهم كانوا يخشون الاعلان عنه حتى لا يصبحوا متهمين ولكن بعد قراءتهم لما كتبت . صاروا أجراءً على اعلان رأيهم الحقيقي بعد أن اختبئت هالة الاعلام والشعارات المنقرضة التي صادرت هؤلاء القراء لسنوات طوال.

ان الحالة تتطلب المواجهة وتسمية الأشياء بأسمائها، وهذه مسألة لا يقدم عليها الا القلة من الذين أحرقوا سفنهم ولم يعد أمامهم الا أن يجابهوا وسيسجل لهم أنهم قد أشرّوا الخطأ ونبهوا اليه، وحذّروا منه.

ربما تبدو المعركة - ان جاز لي أن أسمى الحالة معركة - غير متكافئة واحتمالات الخسارة فيها متوقعة اذ ان هؤلاء المتصدين لا يملكون الفضاء وأولئك يملكون كل الفضاءات وكل الامكانات ووسائل التأثير.

- 2 -

ان هناك قصة ورواية عربية أخرى حاضرة ومتواجدة، غير معلن عنها كفاية ومهمتنا أن نكتشفها. فحضورها سيشكل البديل عن بضاعة السوق المغشوشة.

إن التقنيات القصصية الشائعة هي تقنيات ليست من إنجاز القص العربي. بل عمل كتاب غربيون وأمريكان لا تينيون ويابانيون على إنجازها مفيدون من التجارب التي خرجت بالرواية العالمية وخاصة رواية القرن التاسع عشر الى أفق آخر لم تعرفه كما حصل في يوليسيس لجيمس جويس أو البحث عن الزمن الضائع لمارسيل پروست... هاتان الروايتان اللتان ودعنا عهدا لتبدءا آخر جرى استكمالهما في أعمال لاحقة لكتاب كبار مثل «الرباعية الاسكندرية» للورنس داريل. ثم ما قدمه روائي امريكا اللاتينية.

والتقنيات القصصية متعددة، وليست هناك تقنية واحدة، وهي تختلف أيضا بين كاتب وآخر من الكتاب الاساسيين حتى في البلد الواحد.

إن كانت التقنية تضم فيما تضمه، اللغة، الرؤيا، الموضوع، الشكل، فان هذه المقومات ليست عائمة بل تتكون نتيجة مؤثرات منها ما هو خارجي وليد القراءة والمشاهدة ومنها ما هو داخلي وليد وعي الكاتب بمحيطه وحجم موهبته وبواسطتها ننجز قصتنا وروايتنا. وهنا أقول بأنني أتعامل باحتراف مع هذه الظواهر الفولكلورية في الرواية العربية. ومن يركز على هذه الظواهر كأنه ينشد رضا المستشرقين أو من يترجم هذه الأعمال إلى لغته ليحول الواقع العربي الى مجرد مشاهد فولكلورية في الموت والزواج والاكل وأساليب الحياة من لباس واستحمام وعلاق.

ان أعمالا كهذه تكرر الصورة المتخلفة للمجتمع العربي حيث تحول الى مجرد مشهد سياحي من مجتمعات لا تعيش عصرها، ولذا فان ترجمتها ونشرها بلغات أخرى لا يعني أنها النماذج الراقية المطلوبة، ونقول باعتداد أننا نرفض أحكام الآخر المصدرة لنا ونرفض الوقوع في الفخ الذي نصبه لنا لنكتب له القصة التي يريد لها القصة التي نريدها نحن.

وكان بودي أن أورد أسماء، ولكن بمجرد تحديد الظاهرة سيقودكم الى أسماء معينة دون غيرها ويذكركم بها.

فروايتنا العربية ليست ظاهرة فولكلورية وان كان الفولكلور مهما جدا ومصدرا لاغناء الرواية الانسانية سواء في الوطن العربي، أو أمريكا اللاتينية، أو اليابان ولكنها ليست المبتغى وليست كل شيء.

- 3 -

ان المشهد الذي يواجهنا في القصة والرواية العربية هو مشهد خرب، والأعمال الطاغية على السطح ليست هي انجازهما المتقدم بل هو اتجاز السياسة والأشاعة غالبا.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وما دمت قد نبهت الى ان لمداخلتي هذه طابع الشهادة أذكر هنا ان أحد الأصدقاء خرج من إحدى المكتبات قبل أيام وبيده مجموعة كتب تدرس الرواية العربية، ألقيت نظرة عليها وقلت له بكل هدوء :

- هذه كتب لن أتعب نفسي بقراءتها.

وتساءل الصديق :

- ولماذا ؟

ورددت ببساطة :

- لأنها تكرر الخطأ، ونحن لا نريد هذا (2).

نعم، ركाम من الكتب والمقالات التي تكرر الخطأ، حتى ضاقت ساحة الرواية العربية فلم يعد فيها الا خمسة أسماء أو ستة تمتلك كل الحقوق الالهية والدنيوية.

ان كتبنا كهذه تمر وتعتمد كمصادر غالبا ولا أحد يراجعها أو يدينها ما دام كاتبها (حرا) في اختيار الأسماء التي يدرسها، كم من مرة حضرت ندوة حول القصة العربية فيدعى لها دارس وروائي، يسكنان غرفة واحدة، والعلاقة بينهما همس حميم، كأن هناك أسرار أخفية، ثم تبدأ الندوة فنكتشف ان هذا الناقد ما جاء الا ليقدم دراسة عن هذا الروائي الذي يرافقه فقط (3).

ان الحكم الصحيح غائب، والتقييم الدقيق في الجهد يجري تزويره وبالنتيجة يعتمد التزوير الى كل الحركة الأدبية وبروح قبلية وشللية مرعبة يتم الرصد فنرى أمامنا من لا نريد أن نراهم.

- 4 -

ان هجوم الترجمة غير المنسق وغير المخطط له والذي تحركه متطلبات القارئ الذي وصفته بأنه «ضحية» غالبا ساهم هو الآخر في عملية التضليل للامنهجية هذه رغم انه لولا هذه «الترجمة» لما استطعنا قراءة قصة العالم، بدءا من دار اليقظة العربية وما أنجزت من ترجمة لعيون الرواية العالمية، ثم دار العلم للعلايين فدار الاداب فتراجم دار المأمون في العراق والسلاسل المهمة في هذا المجال التي أنجزت في مصر في العهد الذي اصطلح على تسميته بالناصرية، كذلك تراجم وزارة الثقافة السورية التي يخطط لها مثقف عربي بارز هو انطوان مقدسي.

ان هناك ما يمكن ان نسميه بالمتابعة الجادة لما ينشر في العالم في مجال الرواية خاصة، وما ينشر مترجما الى لغتنا يترك أثره، وهو أثر قد يمسح البعض ويحولهم الى أتباع ولكن لأخريين القدرة على هضمه واستخلاص الاضاءات فيه وأسرار تفوقه وقوة حضوره.

وهكذا نرى ان قائمة القصاصيين والروائيين العالميين المؤثرين في القصة العربية تكبر وتتغير، من الكتاب الروس، الامريكان، الألمان، الايطاليين، الانكليز، اليابانيين، الأفارقة، الامريكان اللاتينيين .. الخ.

حتى ادباء البلدان الاشتراكية السابقة كميلان كونديرا

الجيكى واسماعيل قدرى الالباني، كذلك الادباء الأتراك ونذكر هنا بشكل خاص يشار كمال وعزيز يسين وغيرهما تركوا تأثيرهم أيضا. ولكن كلما كبرت قاعة هولاء الكتاب وتواجدت أعمالهم في لغتنا كلما كثر الأدباء الأصداء في أدينا.

- 5 -

ربما فيما ذهبت اليه كثير من القسوة ولكنها القسوة المطلوبة ومنطلقها المسؤولية ومحاولة إنصاف الضحايا من القراءة والكتاب.

وفي لقائنا هذا ربما سنعيد الأسئلة نفسها التي سبق لنا وأن طرحناها في هذا المكان بالذات، المركز الثقافي الدولي بالحمامات عام 1977 وكان أستاذنا العروسي المطوي رئيس نادي القصة قد نظم لنا لقاء تحت عنوان .. الكتابة القصصية عند الأدباء العرب الشبان .. يومها جئت من بغداد مدعوا وأنا أحمل أسئلتى الحائرة وطموحاتي الساخنة المبكرة الواضح منها والمبهم شاني في ذلك شأن زملائي المساهمين في بحثهم عن القصة العربية التي نريدها ما زلت أذكر وجوه سمير العيادي، أحمد ممو، صالح الجابري، حسن نصر، عروسة النالوتي، فاطمة سليم، الهادي بن صالح، عمر بن سالم، رضوان الكوني، نافلة ذهب، محمود بلعيد، يحيى محمد، وغيرهم جلهم حاضر في ندوتنا هذه. وهم الذين كانوا وما زالوا خلية «الشغب» النابه في «نادي القصة» ولقاءات السبت «الخالدة» التي يديرها بمهارة بحار عريق أستاذنا العروسي المطوي.

واذكر اننا في لقاء عام 1977 ذاك قد قدمنا شهادات وبحوثا وتناقشنا حد التعب ثم انفض اللقاء وذهب كل واحد منا الى عمله وبلده وايقاع حياته. كلنا كنا متفقين على أن نواصل تجاربنا من أجل انجاز قصتنا العربية ذات الهوية والدور، القصة الرافد الذي يغني لا التابع الذي يسير وراء الآخر فقط.

ان المسألة ليست هينة، والمهمة شاقة وخرائطنا تخص أرضا بكرا لم تعرفها الأقدام جيدا ومع هذا فالحماس الصادق مهم وهو ما كان لنا منذ ذلك العهد.

ثم ها نحن نلتقي مرة أخرى بعد ست عشرة سنة، فما هي اسئلتنا اليوم ؟ وماذا تحقق ؟ وهل مازال الحماس على ما هو خاصة وان اسماء جديدة أضيفت لتلك الأسماء ؟ وتعبأت القاعة بوجوه لها أعمالها التي نشرت في السنوات الست عشرة الماضية ؟ انها اسئلة أيضا رغم انني افتقد وجوها أخرى غيبتها المسؤولية أو الانصراف الى فنون ابداعية أخرى.

- 6 -

في تونس هناك محاولات تنظيرية لعل ايكرها تجربة عز الدين المدني في كتابه «الأدب التجريبي»، وربما يكون هذا الكتاب اول كتاب نظري من وضع قاص عربي اقول هذا لأنني اسجل اهتمامي بما دونه المدني في كتابه المشار اليه رغم انني لم أكن متفقاً معه في كل ما ذهب اليه بدليل انني اعترضت على مجموعته التطبيقية التي كتبها بعد كتابه هذا بسنوات.. حكايات من هذا الزمان.. وقد وصفتها بأنها «حكايات من ذاك الزمان».

ولكن هناك كتاب قصة تونسية اهتموا كثيرا بالتقنية والتنظير لها أو بتقديم نصوصهم دون أي ايضاح تنظيري يرافقها وأذكر هنا أحمد ~~ممن مثلاً الذي اعتبره~~ أحمد الذين اهتموا بتقنية القصة القصيرة وان كنت أود لو انه ربط ما بين دراساته وما بين ما ينجزه من نصوص قصصية وضاءة العلائق اكثر.

وأذكر هنا أيضا تجربة اهتمت بها كثيرا هي تجربة عروسية النالوتي التي تفصح عن اهتمام واع بالتقنية سواء كان ذلك في مجموعتها القصصية المبكرة «البعد الخامس» أو روايتها اللاحقة «مراتيح».

وعندما اذكر مثالي أحمد ~~ممو~~ عروسية النالوتي فانني لا أريد أن أتجاوز جهودا أخرى، في الرواية محمد صالح الجابري وحسن نصر وعمر بن سالم مثلاً وصولاً الى التجربة المهمة جداً لمحمد علي اليوسفي في روايته «توقيت البنكا» علماً بأنني سبق لي وأن نشرت مقالات حول بعض هذه الأعمال أفصحت فيها بشكل تفصيلي عن ما حققته، وآخرها «توقيت البنكا» (4).

ولا بد هنا ونحن نتوقف عند بعض التجارب التونسية انطلاقاً من العنوان الكبير لندوتنا هذه ان نشير إلى تجربة محمود بلعيد ذات التفرد الخاص التي تقدم لنا ما يمكنني ان اسميه بالقصة الشعبية انه يذكّرنا بالرواية الشفاهيين الذين يسكنون بالسامع ويصادرونه بما يقدمونه له من حكايات حية، لغتها تتوخى الايصال لا البناء اللغوي المحكم فقط، ولعل مقارنة بين تجربته وتجربة أحمد ممو يبدو فيها الاختلاف الذي يصل حد الانقطاع، ولكن كلها تجارب في قصة واحدة هي القصة التونسية ومن الممكن هنا أن أشير الى أن جذور قصص بلعيد موجودة في قصص علي الدوعاجي وكلاهما ينحدران من حي باب سويقة الشعبي.

ان من يقرأ النصوص العربية ذات الاضافة عليه أن يحاكمها وفق قوانينها هي لا وفق قوانين الآخر، وأن لا يعمل على حشر القصة العربية في قالب أصغر منها وهي الجريمة التي يقترفها بعض النقاد العرب باصرار في نماذج من كتاباتهم سواء المنشورة في كتب او في الصحف او الدوريات حيث تشعباً بأسماء دريدا وبارت وتود وروف وغيرهم فكان هؤلاء قراءوا روايتنا وقصتنا القصيرة ونظروا بعد ذلك <http://Archivebeta.Sa>

وأقول بصفاء ان ذكر هذه الأسماء بات يستفزني وخاصة وهي مقترنة بمصطلحات مقحمة في استعراضية واستعلائية على قارئ نصوصهم بما في ذلك الكاتب الذي تناولوه.

وتأتي هذه الموجة من الأسماء والمصطلحات بعد انحسار تلك الموجة التي اغرقت مساحة الكتابة العربية لاكثر من اربعين سنة حيث ازدهار ادب الشعب والواقعية التي بضفاف أو بلا ضفاف أو الواقعية الاشتراكية ... الخ.

كان النقد العربي لوح كتابة يستقبل كل ما يخطه الآخر أو يصدره بدون مراجعة وان اقترب البعض ليدلل على وعيه بالثرات فلا بأس من أن يزج لنا بالجرجاني أو سردية «الف ليلة وليلة» ولست مستغرباً ان يسمى ناقد رصين هو جورج طرابيشي هذا الزج التراشي المفتعل بالمذبحة ولعل عنوان كتابه المزاق

«مذبحة التراث» (5) دليل على ان المسألة قد وصلت الى مرحلة الخطر.

ويبدو أن صرخة طرابيشي أو ما يكتبه البعض أو يردده بشكل متوافق معه ستظل غير مسموعة أمام اذان مصابة بوقر اسمه تود وروف أو بارت أو الجرجاني (المتدورف) لا تود وروف (المجرجن).

ان القبائل العربية والشلل ومكرسي الزور وسارقي الأدوار هم الذين خلت لهم الساحة اليوم فصاروا يلعبون على هواهم يرفعون وينصبون ويكذبون فرحين بما يحيط بهم من اتباع وما يفتح لهم من فضاءات ظنا منهم ان الأمور قد رست عندهم وامثل الأدب العربي لما أرادوه ولكنهم واهمون في هذا فالمياه لن تبقى على ما هي عليه أبدا.

- 7 -

ليست هناك تقنية جاهزة يمكن تعريفها أو الحديث عنها، فالتقنية ليست موديل بدلي ولا خارطة بحث، انها ابهار، اشتغال، انشغال، دأب، استشراف، حركة، رصد، استنتاج، وكل كاتب محمل بخصوصياته وتجارب وحياكة أساطيره، وأشير هنا الى تجارب يقوم بها كتاب قصة قصيرة عراقيون أمثال أحمد خلف، محمد خضير ومحمود جنداري وغيرهم، وهي تجارب لم تأخذ مداها ولو أن اصحابها من بلدان عربية أخرى كمصر مثلاً لكانت لتجاربهم هذه أصداء اكبر وأهم الأمر الذي حظي به كتاب قصة ثانويون هناك سلط عليهم الاعلام المصري المؤثر أضواء كاشفة ليجعل الأعين لا ترى عداهم.

أننا لا نريد الكتابة لارضاء الآخر ولا وفق شروطه بل نريد الكتابة لارضاء طموحنا الخاص وانجاز قصتنا المميزة وروايتنا ذات الهوية، لا نريد نصوصا بالامكان ارجاعها الى أصول غربية حتى اعتبر البعض وصف يوسف ادريس بتشخوف العرب أو بتشخوف مصر بأنه مديح له ؟ ورغم ان هذا ما عناه مطلقو هذه الصفة فعلا الا انهم اساءوا الى الكاتب وشتموه عندما قرئوه بآخر، لماذا لا نكون نحن نحن؟ وندع الـ «هم» في موقع الـ «هم»؟

لقد كتبنا وكتبنا وكبر الكم المنشور وتكاثر الاسماء وتعددت التقنيات واختلقت، البعض مضى بعيدا فأوغل والآخر تراجع ملتزما ومتذرعاً بتلك الحكمة النبيلة (ليس بالامكان ابداع مما كان) رغم انه هناك بالامكان دائماً أروع وأهم مما كان.

ولم يكن مستغرباً بل اعتبره حالة طبيعية جداً أن يظل نقاد مدرسيون آخرون على اصرارهم وتبشيرهم بنماذج تنتمي الى اجيال يكاد أن يكون دورها قد انتهى، وكلما ارادوا ان يستعيدوا مجد القصة الغابر يذكرون أسماء وأعمال صارت في عداد الماضي ولا علاقة لها بالهاضر وما يحصل فيه.

ولعل الحالة العراقية تحضرني هنا بشكل قوي نظراً لاستمرار تواجد بعض النقاد السلفيين واستمرار حضورهم ونذكر هنا اسم أحدهم حتى لا يصبح القول عائماً وأعني به الدكتور علي جواد الطاهر.

لكن الناقد والقارئ العربي خارج العراق وهو ليس ضحية من ضحايا هذه التماذج من النقاد كانوا أكثر فهماً واحتفاءً بالقصة القصيرة والرواية العراقية من بعض نقاد البلد نفسه الذين عملوا على تكريس حالة الخطأ وتنصيب الأسماء الخطأ التي هي صنعة العلاقات أكثر مما هي صنيع ابداعها.

رغم الكثرة ورغم التراكم والترهل في الأسماء والأعمال فإن المتميز قليل وكرر انها حالة طبيعية، والمتميز الذي أعنيه ليس هو المتبني والمزمر والمطبّل له من جوقات الضجيج الشللي والعقائدي الفج بل هو المتميز الذي لحق به غبار معارك قبائل الخرافة وكاد أن يحجب ملامحه ويطمسها.

هنا أعود وأتذكر ندوة عام 1977 «الكتابة القصصية عند الادباء العرب الشباب» التي عقدت في هذا المكان وبدعوة من «نادي القصة» وأتذكر اسئلتها التي مازالت على سخونتها رغم

ان ست عشرة سنة كانت كفيلة بأن تصادر شعر رؤوس بعضنا وتحصده أو تشعله بياضا، وصارت العيون لا ترى الكلمات الا بمعونة النظارات أو «العيون الزجاجية» كما يسميها الأستاذ العروسي المطوي.

وما يمكن أن يقال ختاماً هو ان المطلوب من كتاب القصة العرب أن يواصلوا الكتابة، أن ينتجوا المزيد من القصص بتجاربهم وقوانينهم ومن بيئتهم وطاقات لغتهم وأن يكونوا أكثر امتلاء بذواتهم مغادرين دور التابع الى دور الدليل.

أما دارسو القصة ونقادها فعليهم ان يزحزحوا صخور بارت وتودوروف وغيرهما عن صدورنا وأن يغادروا سجن الآخر والانصياع لقوانينه وأن يعيدوا قراءة ما أنجز في القصة القصيرة والرواية بعيداً عن أي تأثير غير الابداع والاصالة من أجل اعادة رسم الخارطة المشوهة بالشكل الذي يعيد كل كاتب الى حجمه ويؤشر أهمية ما أعطى. ثم ممارسة الدور المهم الآخر للنقد في خلق قارئٍ سوي ودعم كاتبٍ واثق وأصيل.

ARCHIVE
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

هو أمش:

- (1) جريدة (الوحدة) - تونس في 22 - 5 - 1993.
- (2) الصديق هو الروائي الفلسطيني يحيى خلف.
- (3) من آخر حالات هذا المشهد رواثي من مصر وناقد من المغرب في ندوة عقدت في صفاقس عام 1990 عن الرواية العربية.
- (4) توقيت البنكا رواية تفاصيل التفاصيل، ملحق جريدة (العلم) المغربية في 29 - 5 - 1993. ثم نشرت في مجلة «الناقد» عدد ديسمبر 1993.
- (5) مذبحة التراث - منشورات دار الساقي - لندن 1993.

إن

الحيوان ملازم الانسان ومؤثر في حياته وتعبيره الفني بداية من الرسوم المنقوشة في كهوف العصور البدائية وصولا إلى رسوم الفسيفساء والمقطوعات الشعرية فالكتابات النثرية فليس جديدا، إذن، أن يتحدث كاتب ما عن الحيوان أو يستعيره قناعا. إنما الطريف فعلا هو كيفية الاستعارة وما تحمله من إضافة.

قناع الحيوان في أقاصيص بوراهي عجينة (*)

وفي أدبنا العربي لازم الحيوان ديوان العرب فخصّ الجواد مثلا بأروع القصائد ووزّله الشعراء منزلة كبرى فغنته «سور» فرسه تصويرا جميلا رفعه فيه إلى درجة الانسانية « (1) إذ قال :

فَازُورٌ مِنْ وَقَعِ الْفَنَاءِ بَلْبَاتٍ وَشَكَا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمُّمٌ
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي (2)

كما نجد الشنفرى الذي تجاوز الجميع فيما تجاوز فلم يرفع الحيوان إلى درجة الانسانية فقط بل رفعه أيضا على بني قومه وأنس بما هو وحشي، فقال رافضا قومه :

ولي دونكم أهلون، سيدٌ عمّلسُ وأرقطُ ذهلولٌ وعرفاء جبال (3)

(*) المجموعات القصصية التالية : ممنوع التصوير - طبعة 1982 - نشر مؤسسة سميدان سوسة، تونس. - وجوه في المدينة (الطبعة الأولى 1985) - أمواج الغضب (الطبعة الأولى 1992).

(1) شرح العلاقات المسبب للزورني ص 190 نشر دار الجيل بيروت.

(2) نفس المصدر ص 213.

(3) كتاب أشعار الشعراء السّنة الجاهليين - الأملم الشنتمرى - دار الافاق الجديدة بيروت، ط 3 ص 222 و 223 - الجزء الثاني.

إن هؤلاء الشعراء قد نظروا إلى الحيوان فرأوا ذواتهم في مرآته لكن بلامح عامة وخالية من التعقيد، إذ رأى عنتره شجاعته في الجواد مثلاً ورأى الشنفرى رفضه في الوحوش.

غير أنه - ولأول مرة - استعمل الحيوان قناعاً معقداً لذات الانسان وترسباتها وأغوارها كان مع ابن المقفع في كتابه «كليلة ودمنة». هذا قديماً... (4)

أمّا حديثاً فلا تخلو الكتابات من ذكر الحيوان بوجهيه الظاهر والباطن، والواقعي والرمزي. ونذكر على سبيل المثال توفيق الحكيم وحمارة، ونجيب محفوظ في «الرصاصة والكلاب» وحسن نصر في بعض أقاصيص «ليالي المطر» والمسعودي في «السد»... وفي «حدث أبو هريرة...» فإنّ يمكن أن تندرج أقاصيص بوراوي عجينة ؟

«كليلة ودمنة» حضوره وحدوده في الأقاصيص

يقول الناجي مطير : «استوحى بوراوي عجينة هذا الأسلوب من ابن المقفع في كليلة ودمنة غير أنّه تجاوز تصوير صراع سمكة مع صياد... إنّما استعار للشخصية صورة الحيوان دون أن يبقيه في الأدغال بل خرج به إلى عالم متعدّن» (5).

فعلاً. لقد أقحم القاص حيواناته المدنية فركض الفرس بين الاشارات الضوئية ونطّت السمكة من الميناء إلى دكان المربطات. وركب الجرذ السيارة واستوى قائماً على جهاز التلفاز يدخن لفافة غليظة. بينما نجد أن حيوان ابن المقفع لم يخرج من الغابة وأجوائها. لكن هل إنّ هذا الاختلاف شكلي فقط، أم أن الغابة عند بوراوي عجينة تتحول الى مدينة والحيوان إلى إنسان ؟

إذا عدنا إلى كليلة ودمنة وجدنا مقدّمة أضيفت للكتاب بقلم عليّ بن الشاه الظاهري الفارسي (المتوفى عام 302 هـ) قال فيها : «وجعله [بيديا الفيلسوف] على ألسن البهائم والطيور صيانة

(4) لقد استعمل الباحث الحيوان أيضاً لكن كموضوع للبحث خاصة في «الحيوان».

(5) تقديم مجموعة وجوه في المدينة ص 126.

لغرضه فيه من العوام وضناً بما ضمه عن الطغام» [أي الاوغاد] (6)

كما مهد ابن المقفع لكتابه فقال : «وأما الكتاب فجمع حكمة ولهوا، فاختراره الحكماء لحكمته، والأغوار للبهو» (ص 43). فهل حاد بوراوي عجيبة في استعماله أقنعة الحيوان عن هذا المنحى ؟ يبدو أن الأستاذ الناجي مطير يعتبر أن القاص استوحى هذا الأسلوب من ابن المقفع، إلا أن هذا التقديم لا يظهر على درجة تامة من الوضوح، إذ نخلط بهذا الطرح بين المضامين وطرق التعبير.

وهنا لا يجوز الخلط، فطريقتا الطرح مختلفتان - وليس هذا مجال دراسة مقارنة بين الأثرين - وإنما يمكن فقط أن نشير إلى أن ابن المقفع اعتمد في كليله ودمنة أسلوبا كان يتلاءم مع ذهنية عصره القائمة على الرواية، فكان السرد يستمد شرعيته من الرواية، ومنهجه قائما على الحكاية : ففي هذا السرد الحكائي تتضمن الأحداث بعضها البعض بشكل توليدي يتكوّن من صناديق يحتوي أكبرها الأصغر منه، وتتجمع كلها حول فكرة أساسية، وجميعها تأتي إما مدعومة المقصد من القصة الأساسية أو قد تناقضها لتدعمها على أساس من المنطق الجدلي. ومثال على ذلك باب «الفحص عن أمر دمنة». حيث يحاول دمنة بمكره ودهائه أن يأتي بأمثال في أقاصيص تدحض آراء خصومه، وفيها تتجلى قدرة ابن المقفع على الكتابة والتعبير عن الإحساس ونقيضه والفكرة وما يقابلها بنفس قوة الحجاج المنطقي.

فأين كتابة بوراوي عجيبة من هذا الأسلوب وما مدى استلهامه منه إن وجد ؟

إن جملة هذا القاص تحاول أن تبحث لها عن موقع معاصر بحيث لا تذكر أبداً بجمل كليله ودمنة ، وهذا بديهي ، ذلك أن جملة بوراوي عجيبة رغم ميلها للطول (أحيانا) والافاضة في الشرح والوصف، تبحث عن بسيط اللفظ وخفيف وقعه بما يوحي بميل السارد للإفصاح. وهي تنجح أحيانا في الاحتفاظ بسر كثافتها وعمقها أيضا : نلاحظ ذلك من خلال فقرة من أقصوصة

(6) كتاب «كليله ودمنة» لعبد الله بن المقفع - تحقيق وتقديم د. محمد أمين فرشوخ نشر دار الفكر العربي بيروت الطبعة الأولى 1990 - الصفحة 23.

«نباح وعواء في الفصول الأربعة» : «أحسّ [الكلب] بوخز في طرف ذيله، وأراد أن يسكته بأسنانه، جرى خلف ذيله الهارب، وبقي يدور... ويدور... ويدور... (ممنوع التصوير الصفحة 45).

إن كلمات من قبيل : إحساس ووخز وجري ودوران وهروب، هي كلمات محملة ومشحونة بالدلالات، جعلت الجملة مكثفة وخاصة معنى الدوران وما يتضمنه من إحالات رمزية وفلسفية...

فإذا كانت القصة القصيرة تختصر بكثافة الجملة وقوة المعاني المنبعثة من كل كلمة فيها، كما ترى ذلك الناقدة الأمريكية سوزان لوهافر (7)، فإن موقف بوراوي عجيبة يبدو جامعا التبسيط في المظهر الى التكتيف في الباطن. فلك أن تفهم من لغة القاص «ما هولك، وما لا تفهمه من كلامه فهو لفيرك» كما يقول ميخائيل نعيمة (8). وعلى هذا الأساس مثلا لك أن ترى الكلب كلبا يعوي خلف ذيله، ولك أن ترى غير ذلك.

إننا نرى أن القاص يعي بأنه يكتب على واجهتين : واجهة الطرح وواجهة الجرح (9).

قناع الحيوان بين الطرح والجرح
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

نعني بالطرح كل ما هو معروض وشائع في الواقع المعيش أو المتخيل، وهو عموما كل المضامين المطروحة على قارعة الطريق.

فمثلا أخذ الكاتب شخوصه من صورة فوتوغرافية في اليوم أو في مقال الصحفي أو حدث عابر فإنه وجد في حكايات كليلة ودمنة ما يسمح بوضع الاصبع على الجرح، فتناول قناع الحيوان تناوله صورة الألبوم. فالإنسان العادي يمر على الصورة ويطوي الألبوم، لكن هذا الحدث البسيط يكفي القاص ليفتح جرح

(7) «الاعتراف بالقصة القصيرة» : ترجمة محمد نجيب لفنة - نشر دار الشؤون الثقافية العامة بغداد 1990.

(8) كتاب تسليق الشعر فواطر وقناديل فتحي شبيل - طبع مؤسسة سعيدان سوسة تونس 92 الصفحة 3.

(9) عبارتان استخلصناهما إثر قراءة المجموعات القصصية الثلاث المذكورة سلفا.

الألبوم فإذا الرَّجل يستحيل في الذاكرة إلى «لحية شقراء» وإذا اللحية تتحوّل بدورها إلى نبتة تقلع من جذورها (أمواج الغضب ص 38). فكما حوّل القاصّ اللّحية في الذاكرة إلى نبتة في متخيّل الذاكرة فإنه حوّل الانسان بنفس الطريقة إلى حصان وإلى كلب وإلى سرطان وإلى نورس ثم حوّل الجرذ إلى إنسان.

إن القناع الظاهر هو المطروح على الطريق وأما باطنه فهو الجرح، ولا نعني بالجرح مأساة الكتابة لدى هذا الكاتب فنهاية قصصه تكذب هذا المنحى لأن بوراوي عجيبة ينهي قصصه نهايات متفائلة صادمة في تفاؤليتها أو تسليميتها. نورد لذلك مثالا أول من قصة قتلوا الجنين : «سنحميه معا بكلّ قوانا حتى يولد قوياً ووسيعا... نعم سينمو ويكبر ويغيّر مجرى حياتنا». (وجوه في المدينة ص 97).

أما في قصّة اللّحية والمقصّ فإن الراوي يقول : «لا فائدة من الفرح أو الحزن، من الصّداح أو النواح فتلك هي الحياة ونحن نسير فيها». (أمواج الغضب ص 43).

لكن خلف ذلك التفاؤل و وراء ذلك التسليم يكمن الجرح. من هنا نتبين أن قناع الحيوان يأتي في ظاهره طرّحا متداولاً متعارفاً ويأتي في باطنه تشريحا في تعقيدات «الذات الانسانية» وتناقضاتها، خاصّة أن اسقاطات هذه «الذات» على الحيوان ليست جديدة مثل اسقاط الغدر على الذئب والخبث على الثعلب والوفاء على الكلب والحصان...

فما هي صور الحيوان في أقاصيص بوراوي عجيبة وهل تخرج عن دائرة هذه الاسقاطات المألوفة ؟

صور الحيوان :

تردّد ذكر الحيوان في الأقاصيص بصفة عرضيّة أو بصفة مركّزة، والذي نهتم به هو الاستعمال المركز والموحي.

لقد استعمله القاص على هذا الأساس في ثلاث أقاصيص من جملة ثلاث عشرة، في مجموعته الأولى : ممنوع التصوير وهي :

قصة الحصان الجامح، وقصة الحصان والعربة والاشارات الضوئية،
نباح وعواء في الفصول الأربعة.

وفي مجموعته الثانية وجوه في المدينة استعمله الكاتب في
قصتين (السكة الملونة وزمن الغضب) وذلك من جملة عشر
أقاصيص.

أما في مجموعته الثالثة أمواج الغضب فقد جاء ذكر
الحيوان في أربع قصص من جملة ثمان (النورس - السرطان -
الجرذان والمصيدة - شعاع أخضر). ويبدو من هذا العرض أن هذا
التنامي في استعمال قناع الحيوان قد ارتفعت نسبته من ناحية
الكم، في المجموعة الأخيرة. فما سبب هذا التكتيف ؟ وهل يشير
الكم إلى الكيف : أي هل إن بوراوي عجيبة أراد بهذا الثبات على
تعميق الاستعمال للإيفال في سبر أغوار الرمز الفني ؟

إننا نشير إلى أنه على غرار الجملة المألوفة البسيطة في
أقاصيص هذا الكاتب، فإن الحيوان تميّز عن حيوان «كليلة ودمنة»
بكونه مألوفاً : مثل الحصان والكلب والسرطان والجرذ. وقد راعى
في ذلك محيطه فلم يغرب القارئ وإنما رغبه في قراءة ما يعيش،
محاولاً الارتقاء بتصوير ذلك المحيط من خلال إسناد الكلب في
قصصه صفات الصمود والتحدّي - على غير ما ينظر به إلى
الكلب عموماً - فالكلب في قصة زمن الغضب (وجوه في المدينة
ص 89) لا يرضى بالذل بل يهاجم السيد المستغل صاحبه. والكلب
أيضاً في قصة نباح وعواء في الفصول الأربعة (مجموعة : متنوع
التصوير ص 51...) يكسر قيوده ويتحرر من صبره على مضي
الحول واستغلال الأسياد. كما أن الحصان يتفق مع الكلب في
صفات التحدي والآنفة والكرامة. فهما يمثلان كأننا واحداً من
حيث أدائها هذا الدور، إنما يختلفان في وظائف عرضية كأن يجرّ
الحصان عربة ويحرس الكلب بيتاً.

إن صفة الوفاء هي التي جمعت الكلب للحصان في الحكايات
المستمدة من التراث. إلا أن الكاتب رغم محافظته على تصوير
صفة الوفاء نجده يتجاوزها بإسقاط صفات جديدة تتمحور حول
الصمود والثورة. وهذا يؤكد مرة أخرى أنه يستلهم من التراث

القناع ليتجاوزه، وذلك بتشكيله تشكيلا جديدا يلبي رغبة في التعبير عن مضامين حديثة قد لا يستوعبها القناع في شكله القديم.

نورد لذلك مثالا من خلال قصتي «نباح وعواء في الفصول الأربعة» و «الحصان الجامح» (ممنوع التصوير ص 5 و ص 43).

الكلب	الحصان	
«تذكر الطريق الطويلة التي قطعها ليعود إلى رفيقه الحبيب. كان لقاء رائعا (ص 49)	«فيشعر الحصان رغم العمل والتعب بالرضا والهدوء والاطمئنان» (ص 9)	صفة الوفاء عند:
«جمع كلّ مألديه من قوّة، جذب رأسه بعنف، فتقطعت السلسلة... بينما تقشعت غيوم داكنة مزیلة الغشاء عن قرص في لون الدّم (ص 53)	«رفع [الحصان] صدره نحو الشمس الدّامية (...)	الصمود والثورة

إن هذه الصفات تضيف على الحيوان مسحة إحيائية إنسانية تحبّبه إلى النفس وتجعل القصة مقروءة في مستويات عدّة - ومن هذه الزاوية تأخذ ببعض أهداف كلية ودمنة وخاصة من خلال تقديم ابن المقفع إيّاها -.

إلاّ أنني حاولت رصد شكلين في تصوير بوراوي عجيبة لحيوانه : - شكل أوّل : أحادي الاتجاه :

كان تكون صورة الحصان مثلا واقعية حقيقية من جهة ورمزية إيجابية من جهة ثانية. وذلك من غير أن تلتقي الحقيقة بالرمز أو الظاهر بالباطن. وكلّ قراءة يمكن أن تكون مستقلة بذاتها عن الأخرى.

شكل ثان : متداخل وجدليّ الاتجاه :

كأن نمرّ في القصة من الجرد إلى الانسان والعكس، فيتداخل هذا بذاك وتتشابك المسالك بينهما حتى نتوهم أن لا خطً يفصل الوجه عن القناع.

أمّا الملاحظة الهامة التي نلاحظها فهي أن الشكل الأول رافق الكاتب في تصويره الحيوان ضمن مجموعتيه الأولى والثانية بينما تجلّى الشكل الثاني خاصة في مجموعته الثالثة من خلال أقاصيص : النورس، والجردان والمصيدة، وشعاع أخضر، وبدرجة أقل وضوحاً وربما بأكثر إيجاء في قصة : السرطان.

شكل أحادي الاتجاه :

إن صورة الحيوان بهذا الشكل يمكن أن تكون ذات وجهين، لكنهما غير متداخلين، بحيث نقرأ القصة على ظاهرها أو حسب دلالتها المؤرّلة، ونأخذ مثالا على ذلك الفقرة الواردة في قصة الحصان الجامح، إذ يرحل الحصان أثناء احتضاره فيرى أنه «قد ركض مسرعا تحيط به الغمام والجياذ العربية الأصيلة البيض متجهين نحو المدينة الكبيرة يتخطّون كل ما يعترض سبيلهم» (ممنوع التصوير ص 14).

على الوجه الأول من العملة نقرأ قصة حصان يحتضر قد أضفى عليه الكاتب مسحة إنسانية.

وعلى الوجه الثاني : نلاحظ أن الكاتب أسند جمع العاقل لجمع غير العاقل (الجياذ)، ويحضر هنا كلّ المخزون الثقافي لهذه العلامة الدلالية، فإذا بالجياذ من «الجود» بكلّ ما تتضمن الكلمة من أصالة ووفاء وكرم يبلغ حدّ التضحية بالنفس، وإذا بالجياذ «عربية» وإذا بآخر صورة يقف عليها الجواد هي «شمس» لكنها «قرص دام»، وبذلك تكتمل فسيفساء اللوحة فنرى أن الشمس في عين هذا الجواد العربيّ الأصيل - أو الانسان العربي الحرّ - لا تشرق إلا بالتضحيات الجسام.

إلاّ أنه ومن حيث البناء الفني يبقى الشكل أحاديّ الاتجاه نمطيّ الحركة. ونأخذ لذلك نموذجا آخر من قصة نباح وعواء في الفصول الأربعة (ممنوع التصوير ص 43...).

فالقصة تخضع كما يوضح ذلك عنوانها لإطار زمني محدد تحديدا واضحا تدور فيه الأحداث متواترة تواتر صارما بين المعيش والمتذكر، وتأخذ فيه الشخصيات أدوارا ذات لون واحد، فهي إما أن تكون ناصعة البياض أو حالكة السواد، متأثرة في كل ذلك خاصة بالمكان الذي وجدت فيه بالنسبة للشخصية الرئيسية وهي الكلب. فالشخصيات داخل سور الحديقة معادية الكلب : «... لكن السلسلة جذبت بقوة وانفعال، فتح أمامه باب الفيلا الحديدي وأقحم مكرها بين الجدران المغلقة، لعن اليوم الذي باعه فيه رفيقه الصغير إلى الكهل الدميم ذي الوجه السمين والنظارتين السوداوين والرائحة النتنة...» (ص 47).

أما الشخصيات خارج السور فهي صديقة، نذكر عمال الطريق مثلا : «عمال الطريق يحفرون الأرض ويغطونها بقشرة سوداء (...) إنه يحبهم». (ص 46) كما نذكر أطفال الحي : «... وأصبحت ذكرى بعيدة تلك الحياة البسيطة الهادئة حيث اللعب مع الأطفال في الوادي بين المنازل المنخفضة، وحيث المرح والسعادة قرب رفيقه الحبيب». (ص 47).

ويمكن أن تلخص العلاقات في إطارها الزماني والمكاني من خلال الجدول التالي :

المكان	الزمان	الأشخاص	العلاقات
مكان معيش : حديقة، سور...	زمان معيشي : كل فصول السنة	- الكلب - أسياذ الكلب داخل سور الحديقة. - عمال الضريق خارج السور	* عدااء الكلب لمن هم داخل السور * صداقة مع من هم خارج السور
مكان متذكر : حشيش، تراب، زهور، أرجاء، منازل منخفضة...	زمان متذكر : فصول السنة باستثناء فصل الخريف	- الكلب - الرفيق الصغير - القديم - السيد السمين - الجديد	* ألفة بين الكلب ورفيقه الصغير، خارج السور. * عدااء للسيد السمين الذي ربط الكلب داخل سور الحديقة.
مكان متخيل : داخل غرفة «الفيلا»	إحياء بفصل الخريف : «رعد يقصف في أذنيه» [الكلب]	- الكلب - الأسياذ الجدد	* يدخل الكلب عالم الأسياذ الجدد المتخيل فيكسر، ويلق دماءهم..

النتائج : تنتهي العلاقات الصدامية بين المتذكر والمتخيل من جهة، والواقع المعيش من جهة ثانية، بالتفجر الذي يحصل في فصل الخريف. وهكذا تعود المصالحة بين الكلب وواقعه السابق (الأول).

إن هذا المسار نمطي، حيث إن الشخصية الرئيسية، وهي الكلب مرّت بالمراحل التقليدية المتعارفة من توازن (متذكر)، إلى عدم توازن، فتوازن جديد.

يمكن أيضا ملاحظة هذا المسار من خلال نموّ القصّ نموّاً تصاعدياً كما يبيّن المخطط التالي :

* «فتقطعت السلسلة ... وطارت في الفضاء حمامة»... (ص 53)

* «سيعتمد على قوّته المتواضعة... وسينتصر» (ص 51).

* «كان البرد يخلخل عظامه... فنبج ولا مجيب» (ص 43).

لكن خلف هذه العلاقات الظاهرة تبدو علاقات خفية منسّدة بين الجمل وبين السطّور، تكشف اللّصّات الفنية لهذا القاص من خلال لعبه على التّناقضات القائمة في العلاقات بين الأمكنة والأزمنة والأشياء والشخصيات، فداخل هذا السجن الزماني المغلق الدائري المعيش والمتمثل في الفصول الأربعة وداخل هذا السجن المكاني المحاصر بالسور والسلسلة الحديدية ينمو رد فعل الكلب نحو زمن متذكر مفتوح (ثلاثة فصول فقط بدون رابع) ونحو مكان متذكر شاسع تمثل في الوادي والزهور والهضبة يتوسّط ذلك الطريق الأملس الذي عبده العمال الذين يحبهم الكلب.

إن العلاقات بين الكلب والطفّل والعمال من جهة، وبينه والسيد السمين صاحب النظارتين السوداوين من جهة ثانية، علاقات لا تخضع للظرف الزماني والمكاني الظاهر فحسب، بل تحمل دلالات مؤوكة أيضا. وقد تحدثنا سالفا عمّا يرمز إليه الكلب في أقاصيص هذا الكاتب، وهنا نلاحظ أن النظارتين السوداوين (10) تشيران إلى الظلام والظلم المختفي في عينيّ هذا السيد

(10) يظهر هذا الرمز أيضا في قصّة اللحية والمقص ص 35 (أمواج الغضب) : «وجوه تضمي عيونها خلف نظارات داكنة السواد».

السَّمِين الذي سجن الكلب واستغله.. هذا الكلب الذي تحوّل إلى «ثمرة شمينة نادرة» (ص 51) بما أنه رمز التحرر والصبر والمثابرة.

شكل جدلي الاتجاه

ونجده مستعملاً خاصة في مجموعتيه الثانية والثالثة (وجوه المدينة وزمن الغضب). فقصة السمكة الملونة (وجوه ... ص 49) تبدأ بوجه واحد من الصورة : تكون السمكة إلى جانب الصياد - الدب أحد شخصياتها القصصية، ثم عندما تخرج من الماء يظهر الوجه الثاني من الصورة، إذ تتطور السمكة لتصبح فتاة. وتبقى العلاقة القائمة من خلال ذلك بين السمكة / الإنسان والسمكة / الحيوان.

إنها في الحالتين «ماكولة ومذمومة» كما هو شائع، حاول الكاتب من خلالها أن يفصح سلوكاً جنسياً سائداً في مجتمع معيق ومعاق، وأن يتجاوز ذلك السلوك السلبي «بجعله» السمكة الملونة» تتجّه إلى الأطفال الصغار وتعمل سائقة حافلة تقودها بهم نحو الرياض حيث يتربّون على سلوك سام.

لكن الذي يهمنا هنا هو تداخل الوجه والقناع، هذا الاتجاه ترسخ في المجموعة الثالثة (أمواج الغضب) إذ تأتي قصص الكاتب المتعلقة برموز الحيوان جدلية الاتجاه في التحول من الإنسان الوجه الى الحيوان القناع وتأتي أيضاً عكس ذلك ونضرب لذلك مثال النورس : فنرى أن هذا الطائر المهاجر يتزاوج في الرمز مع الصديق المهاجر الذي يحيل هو أيضاً على ذلك الطائر.

إذ نجد الراوي يرى في صورة النورس الباحث عن القوت صورة صديقه المهاجر طالب العلم، كما يظهر ذلك من خلال هذه الفقرة من قصة النورس : «سيعود رفيق الشباب من بلاد الثلوج والصقيع محملاً بحقائبه الثقيلة المليئة أمتعة وكتباً وشهائد عالية». (أمواج الغضب ص 5) بينما يرى الراوي صورة الشاب المهاجر في هذا النورس، كما توضحه هذه الفقرة أيضاً : «ويشد ناظري نورس شاب... متأملاً ما في الماء، فاحصاً بعين ثاقبة ما

تخبئه الأعماق من أسرار». (أمواج ... ص 7).

ثم إننا - وفي مواضع أخرى متقدمة من القصة - نلاحظ أن القاص يتجاوز التلميح ليخلط صراحة الوجه بالقناع ويبلغ التداخل الجدلي بينهما حد الاتحاد. ويقول الراوي مخاطباً الصديق المهاجر: «يا نورسا مهاجراً متى تعود ؟» (أمواج الغضب ص 17).

لكن الإجابة عن هذا السؤال الأخير تبقى معلقة لأن صورة الشاب تختلط بصورة النورس في الهجرة والطيران، فإذا بكل تلك الألوان تمتزج فنتحصل على صوت طائفة تخترق فضاء المدينة وهي الأخرى «مهاجرة» قد تحط وقد لا تحط.

ونجد نفس الظاهرة - أي تداخل الوجه والقناع - في الحديث عن السرطان، والجرذ.

إن السرطان مثلاً يتطور من حيوان بحري محمل بدلالات القوة والبطش والشراسة إلى إنسان متفطرس محاط بأسباب القوة والسلطة التي جعلته مهلباً من بقية الناس الذين يحكم مصانيرهم.

<http://Archivebeta.Sakhrat.com>

يقدم الراوي السرطان على أنه حيوان بحري هادئ لكنه مريع، فيقول: «إلى متى سأظل ساكناً عاجزاً عن التقاط صورة له وهو يمتص دماء ضحاياه ؟» (أمواج الغضب ص 57) ثم يصفه فيقول: «ويظل الحيوان البحري ثابتاً في مكانه، ساكناً بين الطحالب الخضراء الداكنة...» (ص 57).

إلا أن القاص لا يلبث - على لسان الراوي - أن يفضح أمر السرطان فيشعرنا بأنه ليس مجرد حيوان بحري... وإلا فما الداعي لنشر صور السرطان «في مجلة مستقلة» (ص 58) ؟

هذه العبارة الأخيرة تبدو مبهمة، لكن يتضح فيما بعد أن السرطان يتحكم في مصائر الناس، فلا يمكن أن يسمح بنشر صورته وهو «يمتص دماء ضحاياه» إذ يقول الراوي: «وتهامس سكان المدينة بأمر السرطان وحاشيته». (ص 62).

من هنا يصبح التداخل واضحا بين الوجه والقناع، وإذا به السرطان، يحيل على دلالة أخرى هي «السلطان» بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني القوة والسلطة والبطش، وقع اسقاطها كلها على ذلك الحيوان البحري، لما بين الكلمتين - سرطان وسلطان - من تجانس. إلا أن الدلالات لكلمة «سرطان» لا تقف عند التجانس اللفظي بينها وكلمة سلطان، بل تحيل أيضا على ذلك الكائن الطفيلي الذي يأتيه رزقه المتمثل في دماء الضحايا وهو هادئ هدوء القتلة المحترفين : إنه الداء الذي يفتك بالإنسان والمجتمع فتكا هادئا وباردا برودا تاماً !

إذن نستنتج أن الكاتب أخذ في تطوير تعامله مع قناع الحيوان تعاملًا حاول فيه تحقيق بعض التمييز، خاصةً بتحوله من الشكل أحادي الاتجاه إلى الشكل جدليّ الاتجاه، ومن الشخصية النمطية واضحة المعالم (التمثلة في الكلب والحصان مثلاً...) إلى شخصية بدأ يداخلها شيء من التعقيد، كشخصية السرطان من حيث تمييزها بتناقض الهدوء والفتك.

غير أن القاص يحقق في قصته «الجرذان والمصيدة» و«شعاع أخضر» (أمواج الغضب ص 85 وص 107) (11) نجاحاً فنياً واضحاً في حياكته تداخل الوجه والقناع، إذ نجده يمرّ بينهما ذهاباً وإياباً، إنها تجربة راقية في بنائها فعلاً : لم يبنها الكاتب بناء أحادي الجانب إطلاقاً وإنما تداخل فيها العجيب والمتعارف والمبهر والعادي، لم نجد فيها لحيوان ابن المقفع من صدق إلا الشكل المطروح - أي الحيوان - فالجرذان هنا هي حيوانات قارضة الورق والأصابع أيضاً ! ولنا أن نلاحظ العلاقة الدلالية بين الأصابع والورق والتلفاز الذي عشتت فيه الجرذان، لتكتمل صورة الحيوان الانسيّ القارض إنجازات الإنسانية الرائعة والتمثلة في الفنون التي تبدها الأصابع. ولنا أن نلاحظ أيضاً أن هذا الحيوان الانسيّ استخدم أحدث الأدوات (سيارة، تلفزة).... لإنجاز أقدر المهمات المتمثلة في الإغارة والسطو على الأرض والعباد. ويمكن أن نقارب بين الاعتداء الجنسي باعتباره اعتداء

(11) نتفرّع القصة الثانية عن الأولى.

على الرَّحْم وبين الاعتداء على المكان باعتباره اعتداء على الأرض. إن الاعتدائين في الحقيقة يشكلان اعتداء واحدا هو الاعتداء على جوهر الحياة.

لقد بدأت الجرذان سطوها معتدية على المكان فقفزت إلى الصُّحْن والتهمت الطعام، حتى قالت إحدى الشخصيات القصصية: «- لقد أوى إلى مسكني [أي الجرذ] واستقر فيه ولا قدرة لي على طرده» (أمواج... ص 95). كما قال الرَّأوي: «لقد خاطت الجرذان حياتنا طولا وعرضا» (ص 102).

ثم إن الجرذان أنهت اعتداءاتها بالاغتصاب الجنسي، أو بالاعتداء على الرَّحْم كدليف دلالي للأرض. تقول خطيبة الرَّأوي في قصّة شعاع أخضر: «حاول الجرذان القذران دفعي إلى المقعد الخلفي فخطبت بيدي كسمكة ألقيت على اليابسة» (أمواج... ص 111).

البناء النمطي في الأفاصيص:

لقد توصل المؤلف إلى تطوير أدواته في رسم أقنعة الحيوان متبعا شكلا مغايرا لما لُحِثَ في مجموعته الأولى خاصة فلاحظنا أنه يبدأ القصّة بعرض القناع وتقديمه ثم يذّيبه في الوجه بصفة متدرّجة: كان يقدّم الجرذ (أو السرطان أو السمكة) على أنه حيوان ثم يتدرّج به ليرأوح بين صورته الحيوانية وصورته الإنسانية وذلك باستثناء قصة النورس التي استهلّت بإبراز «الوجه» والمتمثّل في رفيق الشباب. ثم رأوح في رسم ملامح هذا الرفيق بين الشاب المهاجر والنورس «القناع».

كما لاحظنا أن المؤلف، لم يطور قصّة من حيث المضمون بل حافظ على اتخاذه منهجا تحليليا. ويظهر ذلك في اعتماده الشخصيات النمطية والألوان الموحدة: فالجرذ يحيل مثلا في دلالة المتعارفة على كلّ ما هو قميء ومقرف، والكاتب لم يتجاوز به هذه الصورة، فجاء الجرذ قميئا ممثلا للإنسان في أفعاله الدنيئة: ثم إن الجرذ حيوان كثير التوالد. وقد استغلّ القاص هذه الصّفة ليولّد منها شرور هذا «الحيوان - الإنسي» الذي استعمر المدينة،

فذكرنا في هذا المجال برواية «الطاعون» لالبار كامو.

والنورس حيوان بحري أحالنا على فضاءات الصيد والصراع والهجرة، والكاتب لم يخرج عن هذه الاحالات فصور فضاء النورس تصويرا شاعريا رومنتييا، وبدا المكان شاسعا زاخرا بالالوان من رمل وفضاء وبحر، كما بدا متحركا معبرا عن الهجرة الدائمة - إذ مررنا من الشاطئ إلى المقهى ومن السماء إلى البحر فمن السقف إلى الفضاء الممطر، حتى أن الراوي أنهى «شهادته» عابرا أحد شوارع المدينة، كما شق فضاءها هدير طائرة قد تحط أو لا تحط ! وبذلك انتهت قصة النورس على إيقاع الرحلة واللاقرار.

لماذا لم يرمز الجرذ إلا إلى الدناءة والقرف ؟ ولماذا لم يرمز النورس لغير الجمال واللاقرار ؟

لقد واصل الكاتب بناء قصصه بناء نمطيا فمرت مختلف قصصه بالحالات الثلاث المذكورة، باستثناء قصتي النورس والجرذان والمصيصة. إذ انتهت الأولى نهاية مفتوحة منسجمة في ذلك مع مضمونها المعبر عن الهجرة...

وانتهت قصة الجرذان والمصيصة نهاية مخالفة للتوقع السائد في قصص المؤلف، إذ انتصرت للمرة الأولى عناصر الشر. يقول الراوي : «... وفرت القطط كلنا رأيت طيف الحيوان الرمادي أو شممت رائحته من بعيد» (أمواج... ص 104).

إن القاص ينهاي على عادته قصصه نهايات متفائلة. ولذلك فإن قصة شعاع أخضر أتت لتدعم هذا الاتجاه، فقد تفرعت عن القصة الرئيسية - الجرذان والمصيصة - وانتهت بانتصار الخير وإرادة الحياة والابداع على عناصر الشر وإرادة تدمير الحروف والأصابع. يقول الراوي : «أخذت الحروف القديمة المورقة [في المخطوطة] تتضح شيئا فشيئا... متعلمة متسابقة بجرأة تنهيا لكي تولد من جديد وتسير في دروب الحياة العجيبة». (أمواج الغضب ص 117).

خاتمة :

قد نخرج من تناولنا بالدرس قناع الحيوان لدى هذا الكاتب ببعض النتائج، منها أن يكون الحيوان إما حصانا حراً أو جرذاً لنبيما... وليس هناك حيوانات معقدة التركيب باستثناء السرطان الذي حاول الكاتب بذر عنصر البناء المعقد لشخصيته من حيث هدوؤه وفتكه بضحاياه ومن حيث زعمه حماية سكان المدينة من الغرباء بينما هو يستغل في الواقع كلّ ساعد في تلك المدينة... إلا أن السرطان نفسه ينهزم في نهاية القصة، وتكون نهايته على يد «الدلفين ورفاقه» - هؤلاء الأبطال - مخلصي المدينة وأهل المدينة.. وبذلك تكون النهاية نمطية هي الأخرى تنتصر فيها قوة الخير للجموع المستكينة !!

إن اعتماد الشخصوس النمطية لا يمثل مشكلة هذا القاص بقدر ما هي مشكلة كاتب - في بلد يسمى إلى النمو - يحاول إسكان تطلعاته تطلعات مجتمعه، فيوهم نفسه عن خطأ أو صواب أنه نبي العباد وحامل شعلة الألهة.

إن النزعة التعليمية هذه، والقريبة من مذهب ابن المقفع ليست عيباً، لكن قد تكون قيداً، فلن كان بوراوي عجيبة قد انتهجها في كتاباته فذلك أن شروط زوالها ربما لم تحن بعد كما أن هذه النزعة قد تكشف عن رغبة في بث بذرة عقل في هذه الغابة البشرية التي نعيش فيها.

لقد استخدم الحيوان في الأدب عامةً وجهاً أو قناعاً. فهل تميز بوراوي عجيبة بالمرور بين الوجه والقناع جيئةً وذهاباً ؟ ثم نتساءل أخيراً : هل خرجت نصوص معاصرة أخرى عن إسقاطات الواقع في استخدام قناع الحيوان إلى استخدامات جديدة ؟ أو هل تجاوزت كتابات أخرى في استخدام قناع الحيوان المعقول إلى اللامعقول ؟

نصر الدين الخليلي